لا أؤمن بهذا الإله

خوان أرياس

نقله إلى العربية

الأب

كَميل حشيمة اليَسُوعي

الطبعة الخامسة

دار المشرق ش م م - بيروت

إنجيل شديد اللهجة

مدخل للنصّ بآيات من الكتاب المقدس:

W [وَيَكُونُ مَقْدِساً وَحَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ لِبَيْتَيْ إِسْرَائِيلَ وَفَخّاً وَشَرَكاً لِسُكَّانِ أُورُشَلِيمَ] [أشعياء ٨: ١٤]...

W [لِمَاذَا؟ لأَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لَيْسَ بِالإِيمَانِ بَلْ كَأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ. فَإِنَّهُمُ اصْطَدَمُوا بِحَجَرِ الصَّدْمَةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: { هَا أَنَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ وَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُخْزَى}] [رومية ٩: ٣٢، ٣٣]...

W [هَئَنَذَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ زَاوِيَةٍ مُخْتَاراً كَرِيماً، وَالَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لَنْ يُخْزَى. فَلَكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تُؤْمِنُونَ الْكَرَامَةُ، وَأَمَّا لِلَّذِينَ لاَ يُطِيعُونَ فَالْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ، وَحَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ. الَّذِينَ يَعْثُرُونَ غَيْرَ طَائِعِينَ لِلْكَلِمَةِ، الأَمْرُ الَّذِي جُعِلُوا لَهُ] [١ بطرس ٢: ٧ - ٩]...

W [وَأَمَّا أَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَإِنْ كُنْتُ بَعْدُ أَكْرِزُ بِالْخِتَانِ فَلِمَاذَا أُضْطَهَدُ بَعْدُ؟ إِذاً عَثْرَةُ الصَّلِيبِ قَدْ بَطَلَتْ] [غلاطية ٥: ١١]...

W [وَلَكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوباً: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً!] [١ كورنثوس ١: ٢٣]...

W [مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَالِ وَالرُّضَّعِ أَسَّسْتَ حَمْداً بِسَبَبِ أَضْدَادِكَ لِتَسْكِيتِ عَدُوٍّ وَمُنْتَقِمٍ] [مزمور ٨: ٢]...

W [فَلَمَّا رَأى رُؤَسَاءُ الكَهَنَةِ وَالكَتَبَةُ العَجَائِبَ الَّتِي صَنَعَ وَالأَوْلاَدَ يَصْرَخُونَ فِي الْهَيْكَل وَيَقُولُونَ : { أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ } غَضِبُوا وَقَالُوا لَهُ: { أَتَسْمَعُ مَا يَقُولُ هَؤُلاَءِ؟ }. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: { نَعَمْ! أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ: مِنْ أَفْوَاهِ الأَطْفَال وَالرُّضَّع هَيَّأْتَ تَسْبِيحاً؟ }] [متى٢١ : ١٥، ١٦]...

W [فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ الأَطْفَالَ أَيْضاً لِيَلْمِسَهُمْ فَلَمَّا رَآهُمُ التَّلاَمِيذُ انْتَهَرُوهُمْ. أَمَّا يَسُوعُ فَدَعَاهُمْ وَقَالَ: { دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْل هَؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللهِ. الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ }] [لوقا ١٨: ١٥]...

W [الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. فَمَنْ وَضَعَ نَفْسَهُ مِثْلَ هَذَا الْوَلَدِ فَهُوَ الأَعْظَمُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَمَنْ قَبِلَ وَلَداً وَاحِداً مِثْلَ هَذَا بِاسْمِي فَقَدْ قَبِلَنِي] [متى ١٨: ٢- ٤]...

<u>النصّ:</u>

جميعنا معرّضون للشك والعثرة، وإن ذلك لنقطة ضعف أكثر ما تبرز فى هذه الأيام، حيث الأفكار فى غمرة الغليان، وأغلب ما تُشاهد فى الحقل الدينى وفى العالم المسيحى بالذات...

ويتّخذ هذا الشك وجهين متناقضين:
فمنهم من يتعثرون لمشاهدتهم الكنيسة تتجرّد فتتجسد فى العالم، وتفتح نوافذها لتظل على اتصال وتحسس بعبير أرض البشر،
ومنهم من يتشككون إذ يرونها تسعى جاهدة نحو المزيد من النقاوة، وعدم التهاون مع ذاتها، والإخلاص الواعى لأهدافها...

الحرّية والعلمنة تقفان حجر عثرة، كما تقوم رسالة البابا حول عزوبة الكهنة حجر عثرة...
وتتبادر إلى الأذهان كلمات المسيح:
[وَبِمَنْ أُشَبِّهُ هَذَا الْجِيلَ؟ يُشْبِهُ أَوْلاَداً جَالِسِينَ فِي الأَسْوَاقِ يُنَادُونَ إِلَى أَصْحَابِهِمْ وَيَقُولُونَ: زَمَّرْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَرْقُصُوا! نُحْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَلْطِمُوا! لأَنَّهُ جَاءَ يُوحَنَّا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ فَيَقُولُونَ: فِيهِ شَيْطَانٌ. جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فَيَقُولُونَ : هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ

مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. وَالْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا] [لوقا ٧:٣١ ـ ٣٥ ومتى ١١: ١٦ـ ١٩]...

إن كان فى الإنجيل كلام شديد اللهجة، فهو ما وجّهه السيد المسيح إلى كلّ من يتسبب بعثار الأطفال الصغار والضعفاء والفقراء، وقتد لجأ فى هذا الشأن إلى صورة معبّرة عنيفة:

[خَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحىً وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ مِنْ أَنْ يُعْثِرَ أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ] [لوقا ١٧: ٢]...

ولئن كان المسيح يندد بالمتشكّكين أىّ تنديد، فهو يعترف أيضًا:

[كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ] [متى ٢٦: ٣١]...

مما يعنى أنه سيكون هو نفسه سبب عثرة للجميع، حتى أنه ينتهى إلى هذا القول:

[وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ] [متى ١١: ٦]...

فكيف التوفيق بين الموقفين؟...

ثمّة طريقة واحدة لعدم الشك فى المسيح...

وهى أن يصبح المرء طفلاً، ساذجًا، فقيرًا...

ثمّة فئة واحدة من الأشخاص لا يشككها المسيح قط: هم الأطفال...

وأخال الحل لمشكلة الشك هو فى السلوك التالى:

ألا نكون البتّة سبب عثرة للصغار والضعفاء،

[وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ] [متى ١٨: ٦]...

وأن نكون من الشفافية والانفتاح للنور والفقر والطفولة الحقيقية، بحيث لا شئ يستطيع تشكيكنا، لا الأعجوبة ولا السرّ ولا الخطيئة ولا الموت...

لم يتحاشى المسيح قط تشكيك المقتدرين والكبار، لكنه لم يشكّك مرة واحدة واحدًا من الصغار...

أمّا فيما يخصنا، فالعكس هو ما يجرى فى غالب الأحيان، إذ نتسبب بالعثرة للفقير والضعيف، ونتملّق القدير والفريسى والغنى...

لذا بدأت الأمور تتغيّر اليوم، مع سعينا لإصلاح الخط من أجل السير فى طريق المسيح القويم...

فقد شرع الأغنياء يتذمّرون، وعادت إلى شفاه الفقراء بسمة الرجاء والأمل...

تصدر الرسالة البابوية فى " ترقّى الشعوب" فيتشكّك الكاردينال والرأسمالى، بينما العامل فى مصنعه وكنّاس الشارع يتهلّلان...

يتشكّك علماء اللاهوت التقليديون لأن بولس السادس يترك الفاتيكان ليزور بطريركّا أرثوذكسيًا لا شركة بينه وبين روما، فيما يبعث الرهبان البوذيون برسائل سريى إلى البابا تطفح بالآمال...

الكاثوليكيون القدامى يتشكّكون لأن الكرسى الرمانى يستقبل سفيرًا لبلد شيوعى، فى حين أن ثمّة ماركسيين مخلصين شرعوا يفكّرون أن الوقت قد حان لإعادة النظر فى مفاهيم الإلحاد...

لن تكون الكنيسة وجه الله الحقيقى إلا حين تكون على غرار المسيح، حجر عثرة للجميع، ما عدا الأطفال...

ولن نستطيع الشعور بأننا اعضاء جقيقيون فى كنيسة المسيح إلا بقدر ما نُرغم ذواتنا على الدخول فى صميم هذه التطوبية الجديدة:

[وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ **]** [متى ١١: ٦]**...**

إن كان المسيح شكّك الجميع، فعلى الكنيسة أن تكون سبب عثرة، وإلا كانت كنيسة من ورق، فارغة، لا مستقبل لها...

لقد كان المسيح حجر عثرة للجميع:

*** **لليهود لأنه كان يقول إنه الله [** أَجَابَهُ الْيَهُودُ : لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلهاً **]** [يوحنا ١٠: ٣٣]**...**

*** **للفرّيسيين، وقد قالوا عنه أن فيه شيطانًا... وقيل له أيضًا: [** أَتَعْلَمُ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمَّا سَمِعُوا الْقَوْلَ نَفَرُوا؟ **]** [متى ١٥: ١٢]**...**

*** **لعلماء الشريعة بسبب رحمته وحريته فى التفكير،**

*** **للرسل بسبب متطلباته، فالأفخارستيا تشككهم وكذلك موته واستقباله للخطأة،**

*** **وللمقتدرين أمثال قيافا، وقد نعته بالمجّدف،**

*** **لأنسبائه، وقد أبوا أن يؤمنوا به،**

*** **لأصدقائه ومنهم مرثا ومريم، لأنه ترك أخاهما لعازر يموت،**

*** **لأمه نفسها إذ أنّبته بعد فقدانه فى الهيكل، وقد قالت له: لم فعلت هذا بنا هكذا؟**

*** **للشعب كله إذ هاج عليه وصاح: " اصلبه ، اصلبه"...**

أمّـأ الصغار فلم يشكّك يسوع واحـدًا منـهم قـط...
كـان يدافع عنـهم " لأنـهم آمنـوا بى"...
لـذا فإن الطفـل سوف يظـل أصفـى صـور الله وأقـربها إلى روح الإنجيـل...
الأطفـال قبـلوا المسيح دون مناقشـة، تركوه يـأخذ بمجامع قلوبهم دون أن يحاولوا احتكـاره..
الطـفـل يصـل بطبيعته إلى حـدود الحرية فى الاستسلام والمحبّـة...
يـرى أنـه من الطبيعى أن يجـترح أبـوه المعجـزات ويكـون أقـوى النـاس وأفضـلهم...
يرى من البديهى أن يُصلحـه غيره ويعلّمـه، ولا يـدور فى خـلده البتّـة أن والـده معرّض للخطـأ، حتى عندما يكلّمه بأمـور هى فى نظـره ألغـاز مطبقـة...
الطفـل يطـرح الكـثير من الأسئلة ولكنّـه يـؤمـن...
الطـفـل يشعـر فى صميم حيـاته أن الحب هـو فى صميم الأشيـاء...
لـذا فإن باستطاعته مخـاطبـة حجـارة الطـريق، وطـين الحـقـول، ومـاء الجـداول، وأنـه ليلعب مع ابن الخـادم وابن الـوزير، والمـرأة البريئـة والمـرأة العـاهـرة علـى حـد سواء...
الأطـفـال أسياد المـادة، ومن المستحيـل أن يركـع الإنسان إلا فى حضـرة الله وحضـرة طـفـل صغير...
إذا كان ثمّـة خطـر تشكيك أحـد الأولاد أو الفقراء أو المتعثرين فى إيمانـهم، فإنـه ينبغى لنـا أن نتشبّـه بالمسيح، فنكـون مستعدين للتنـازل حتى عمّـا نسميه " حقـوقنـا" :
[فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ اَلْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي اَلنَّارِ اَلأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلاَنِ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ اَلْحَيَاةَ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي جَهَنَّمَ اَلنَّارِ وَلَكَ عَيْنَانِ **]** [متى ١٨: ٨، ٩]**...**
مـا كان على المسيح أن يـدفـع الجـزية ولكنـه قال لبطـرس:
[وَلَمَّا جَاءُوا إِلَى كَفْرِنَاحُومَ تَقَدَّمَ اَلَّذِينَ يَأْخُذُونَ اَلدِّرْهَمَيْنِ إِلَى بُطْرُسَ وَقَالُوا: **{** أَمَا يُوفِي مُعَلِّمُكُمُ اَلدِّرْهَمَيْنِ؟ **}** قَالَ: **{** بَلَى **}**. فَلَمَّا دَخَلَ اَلْبَيْتَ سَبَقَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: **{** مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ اَلأَرْضِ اَلْجِبَايَةَ أَوِ اَلْجِزْيَةَ أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ اَلأَجَانِبِ؟ **}** قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: **{** مِنَ اَلأَجَانِبِ **}**. قَالَ لَهُ يَسُوعُ: فَإِذاً اَلْبَنُونَ أَحْرَارٌ. وَلَكِنْ لِئَلا نُعْثِرَهُمُ اِذْهَبْ إِلَى اَلْبَحْرِ وَأَلْقِ صِنَّارَةً وَاَلسَّمَكَةُ اَلَّتِي تَطْلُعُ أَوَّلاً خُذْهَا وَمَتَى فَتَحْتَ فَاهَا تَجِدْ إِسْتَاراً فَخُذْهُ وَأَعْطِهِمْ عَنِّي وَعَنْكَ **]** [متى ١٧: ٢٤- ٢٧]**...**

واليوم يترتبّ على الكنيسة أن تتحاشى تشكيك الفقراء، وغير المؤمنين، والذين يقتربون من النور كأنهم الأولاد، والذين هم فى منتصف الطريق إلى الحقيقة، فتتنازل عن كثير من حقوقها...

من المسلّم به أنه يحق لها أن " تعيش من المذبح"، ولكن أليس من الأفضل أن تَضرب صفحًا عن ذلك إن نتج عنه التشكيك؟ من الأكيد أنه بإمكانها أن تُعفى من الضرائب ومن موجبات كثيرة، ولكن أليس من الأفضل أن تؤديها كسائر الناس ولا تتسبب بتشكيك الضعفاء؟ من الثابت أن الكهنة والرهبان والعلمانيين الملتزمين فى أعمال الرسالة لا يتوجّب عليهم أن يعيشوا حياة الفقر البطولية، على نحو ما يعيشها من يحيط بهم من فقراء حقيقيين، ولكن أليس من الأنسب أن ينهجوا هذا المنهج إذا كان الموقف المغاير يشكّل عثرة للفقراء، أولئك الذين نبشرهم بمسيح لم يكن له حتى سقف يلوذ بحماه؟...

[فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ] [متى ٨: ٢٠ و لوقا ٩: ٥٨]...

لا أنكر أن بعض الحقائق المسيحية تحرقنا كالنار... لذا فإننا بارعون فى اختلاق ما من شأنه أن يبرر مواقفنا... أمّا المسيح فكلامه جازم: " اقطعوا، استأصلوا" ... خير لكم أن تتألموا من أن تشكّكوا الصغار...

ورُبَّ قائل: " لا بدّ من أن تقع الشكوك، فمن المستحيل أن يفهم العامة كل كوامن الأمور"...

ولكن المسيح يستبق هذا الاعتراض حيث يقول:

[اُنْظُرُوا لاَ تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ مَلاَئِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلَّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. هَكَذَا لَيْسَتْ مَشِيئَةٌ أَمَامَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ أَنْ يَهْلِكَ أَحَدُ هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ] [متى ١٨: ١٠، ١٤]...

هذا الصغير " الضائع"، هذه النعجة الضائعة التى ليست من حظيرتنا، هذا الذى ندعوه " خاطئًا" ، " ملحدًا" ، " وثنيًا"، " مناهضًا للاكليروس" ، هو ذلك الصغير بالذات الذى قال عنه المسيح :" لا تحتقروه"، وبعنى بذلك : اصغوا على صراخ ياسه، خذوا بعين الاعتبار آراءه وانتقاداته، وأسباب إلحاده وتوقه إلى النور، وضعفه واستقامته...

فى مـا خـلا ذلك، فـلا خـوف على الكنيسة من الشكـوك، إلا أنـه يتوجـبّ عليهـا القيـام بالمـزيـد إن هى أرادت أن تكـون أمنيـة للمسيح... والمسيح شكّك الناس لألف سبب وسبب:

١ ـ بسبب قـوته الفـائقـة الطبيعيـة:

- **الجـدريون سألوا يسوع أن يتحـوّل عن بلدهم، بعد أن شاهـدوه يطـرد الشياطـين من ممسوس ويُدخـلهـا فى قطيـع خنـازير:**

[فَإِذَا كُلُّ الْمَدِينَةِ قَدْ خَرَجَتْ لِمُلاقَاةِ يَسُوعَ. وَلَمَّا أَبْصَرُوهُ طَلَبُوا أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْ تُخُومِهِمْ] [متى ٨: ٣٤]**...**

- **نيقـوديمـوس، المثقّف ، تشكّك من فكـرة الولادة الروحيـة الجـديدة:**

[قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟] [يوحنا ٣: ٤]**...**

- **عندما أعلن يسوع أنـه والآب واحـد، أتى اليهـود بحجـارة ليرجمـوه:**

[أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: { إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. الأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي.

وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ.

خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي.

وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي.

أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي.

أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ

فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ.] [يوحنا ١٠: ٢٥ ـ ٣١]**...**

٢ ـ بسبب رفضـه مظـاهر العظمـة:

[مَجْداً مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ] [يوحنا ٥: ٤١]**...**

- **تشكّك يوحنـا السابق (المعمـدان) لأن المسيح طلب منـه العمـاد:**

[وَلَكِنْ يُوحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً: أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!] [متى ٣: ١٤]**...**

- **تشكّك بطـرس لأن يسوع غسل له رجليـه:**

[فَجَاءَ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ. فَقَالَ لَهُ ذَاكَ: { يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلَيَّ! } أَجَابَ يَسُوعُ: { لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ }.

قَالَ لَهُ بُطْرُسُ: { لَنْ تَغْسِلَ رِجْلَيَّ أَبَداً! } أَجَابَهُ يَسُوعُ: { إِنْ كُنْتُ لاَ أَغْسِلُكَ فَلَيْسَ لَكَ مَعِي نَصِيبٌ }] **[يوحنا ١٣: ٦- ٨]...**

- **جميعهم تشكّكوا بسبب موته وآلامه وإخفاقه البشرى، وبسبب رفضه تاج الملك ، وإحجامه عن الدفاع عن نفسه، وإغضائه عن الإهانة...**

٣- لأن يديه فاضتا بالرحمة:

- **قالوا فيه:**

[لِمَاذَا يَأْكُلُ مُعَلِّمُكُمْ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ؟] [متى ٩: ١١]...

- **ولمّا رأى التلاميذ المرأة تُفيض على رأسه قارورة الطيب فى بيت سمعان الأبرص، استاؤوا فقالوا:**

[لِمَاذَا هَذَا الإِتْلاَفُ؟ لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا الطِّيبُ بِكَثِيرٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ] [متى ٢٦: ٨ ، ٩]...

- **لقد أتاه الكتبة والفرّيسيّون بإمرأة فقالوا:**

[يَا مُعَلِّمُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟]...

- **فشكّكهم المسيح وأخجلهم فأفحمهم:**

[يَا امْرَأَةُ أَيْنَ هُمْ أُولَئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟ فَقَالَتْ: { لاَ أَحَدَ يَا سَيِّدُ }. فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: { وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً }] [يوحنّا ٨: ٣- ١١]...

- **ولمّا رأى سمعان الفريسى المرأة العاهرة تبكى وتقبّل قدمى يسوع وتمسحهما بشعرها، قال فى نفسه:**

[لَوْ كَانَ هَذَا نَبِيّاً لَعَلِمَ مَنْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْمِسُهُ وَمَا هِيَ! إِنَّهَا خَاطِئَةٌ] [لوقا ٧: ٣٦]...

- **أمّا يسوع فقال للمرأة:**

[إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ! اذْهَبِي بِسَلاَمٍ] [لوقا ٧: ٥٠]...

لقد شكّك يسوع الناس لمّا أطرأ الفقراء وانحى على الأغبياء لَوْمًا، لمّا دان الفريسى " البار" وبرر العشار " الخاطئ"...

٤ ـ لأنه لم يتهاون مع رجال الدين فى زمانه:

- **خطب يسوع فى الجموع وتلاميذه فقال:**

[عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ

فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَافْعَلُوهُ وَلَكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ تَعْمَلُوا لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ.

فَإِنَّهُمْ يَحْزِمُونَ أَحْمَالاً ثَقِيلَةً عَسِرَةَ الْحَمْلِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ وَهُمْ لاَ يُرِيدُونَ أَنْ يُحَرِّكُوهَا بِإِصْبَعِهِمْ

وَكُلَّ أَعْمَالِهِمْ يَعْمَلُونَهَا لِكَيْ تَنْظُرَهُمُ النَّاسُ فَيُعَرِّضُونَ عَصَائِبَهُمْ وَيُعَظِّمُونَ أَهْدَابَ ثِيَابِهِمْ

وَيُحِبُّونَ الْمُتَّكَأَ الأَوَّلَ فِي الْوَلاَئِمِ وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ

وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ وَأَنْ يَدْعُوَهُمُ النَّاسُ: سَيِّدِي سَيِّدِي!

وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ وَأَنْتُمْ جَمِيعاً إِخْوَةٌ.

وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَباً عَلَى الأَرْضِ لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.

وَلاَ تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ] [متى ٢٣: ٢- ١٠]...

- **وليس هذا الكلام من باب مسايرة الجماهير واكتساب عطفهم، فقد أردف المسيح قائلاً:**

[لَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تُغْلِقُونَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ قُدَّامَ النَّاسِ فَلاَ تَدْخُلُونَ أَنْتُمْ وَلاَ تَدَعُونَ الدَّاخِلِينَ يَدْخُلُونَ!

وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. لِذلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ.

وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَطُوفُونَ الْبَحْرَ وَالْبَرَّ لِتَكْسَبُوا دَخِيلاً وَاحِداً وَمَتَى حَصَلَ تَصْنَعُونَهُ ابْناً لِجَهَنَّمَ أَكْثَرَ مِنْكُمْ مُضَاعَفاً!

وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْقَادَةُ الْعُمْيَانُ الْقَائِلُونَ: مَنْ حَلَفَ بِالْهَيْكَلِ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلكِنْ مَنْ حَلَفَ بِذَهَبِ الْهَيْكَلِ يَلْتَزِمُ!

أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ أَيُّمَا أَعْظَمُ: أَلذَّهَبُ أَمِ الْهَيْكَلُ الَّذِي يُقَدِّسُ الذَّهَبَ؟] [متى ٢٣: ١٣- ١٧]...

- **فى نظر يسوع كانت مسئولية رجال الدين آنذاك أعظم من مسئولية ذوى السلطان المدنى:**

[وَلَكِنْ مَعَ ذٰلِكَ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَيْضاً غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ لِئَلا يَصِيرُوا خَارِجَ الْمَجْمَعِ لأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ .... أَجَابَ يَسُوعُ: لَمْ يَكُنْ لَكَ عَلَيَّ سُلْطَانٌ الْبَتَّةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ فَوْقُ. لِذٰلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ] [يوحنا ١٢: ٤٢، ٤٣ / ١٩: ١١]...

- **ولقد ذهب فى تشكيكهم وإثارة حفيظتهم والنيل من كبريائهم كل مذهب حتى سمّروه فى النهاية على خشبة الصليب...**

٥ - بسبب حرّيته فى التفكير والتصرّف:

- **تشكّك الناس لأنه ما كان يصوم:**

[حِينَئِذٍ أَتَى إِلَيْهِ تَلامِيذُ يُوحَنَّا قَائِلِينَ: لِمَاذَا نَصُومُ نَحْنُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ كَثِيراً وَأَمَّا تَلامِيذُكَ فَلا يَصُومُونَ؟] [متى ٩: ١٤]...

- **تشكّكوا لأنه حادث إمرأة سامرية بمفردها قرب بئر يعقوب:**

[وَعِنْدَ ذٰلِكَ جَاءَ تلامِيذُهُ وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا.] [يوحنا ٤: ٢٧]...

- **تشكّكوا لأنه سمح لتلاميذه الجائعين أن يقلعوا السنبل يوم السبت، فقالوا متذمّرين:**

[فَالْفَرِّيسِيُّونَ لَمَّا نَظَرُوا قَالُوا لَهُ: هُوَذَا تَلامِيذُكَ يَفْعَلُونَ مَا لاَ يَحِلُّ فِعْلُهُ فِي السَّبْتِ!]

- **فأجابهم:**

[فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى الأَبْرِيَاءِ! فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً] [متى ١٢:٢، ٧، ٨]...

٦ - بسبب متطلبات تعاليمه:

- **أقول لكم:**

[وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ بِسَبَبِ الزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي. قَالَ لَهُ تَلامِيذُهُ: إِنْ كَانَ هٰكَذَا أَمْرُ الرَّجُلِ مَعَ الْمَرْأَةِ فَلاَ يُوافِقُ أَنْ يَتَزَوَّجَ!] [متى ١٩: ٩، ١٠]...

[فَقَالَ يَسُوعُ لِتَلامِيذِهِ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ.وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضاً: إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى

مَلَكُوتِ اَللَّهِ . فَلَمَّا سَمِعَ تَلاَمِيذُهُ بُهِتُوا جِدّاً قَائِلِينَ: إِذاً مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟] [متى ١٩: ٢٣- ٢٥]...

ليت الكنيسة لا تخشى التشكيك باسم الإنجيل...

فتجتهد أن تعكس صورة الله على أتمّ وجه...

وَلْنَسْعَ لنكون أطفالاً وُدَعَاء بسطاء منفتحين للنور...

لنستقبل بالفرح ما قسمه الله لنا اليوم بالذات...

وقسمة يومنا هذه إنْ هى إلا مجال النعمة بالنسبة إلينا...

هى الفقرة التى نخطّها فى تاريخ الخلاص...

واللبنة التى نقدمها لتشييد عالم جعله الله أمانة فى عنق كلّ واحد منّا...

أصول الحرّية

أخذ العجب من بعض الشبّان، بينهم الطالب والعامل، لمّا سمعونى أعلن فى إحدى محاضراتى: " أنا حرّ"...

فقالوا:" أتُراك حرًّا وأنت كاهن؟...

أتُراك حرًّا وأنت تنتمى إلى كنيسة تقوم على السلطة المنظمة، وقد كبّلت ذاتك بنذور الرهبان الثلاثة وتناضل منذ سنوات ليتاح لك بعثُ مكنونات أفكارك للآخرين؟...

ما هى الحرّية فى نظرك؟...

كيف تتصوّر الإنسان حرًّا؟"...

هذه الأسئلة العنيفة المخلصة أوحت إلىّ بعض الخواطر أسوقها فى الصفحات التالية...

وجُلّ مبتغاى منها توفير منطلق لحوار يعدو السطحية...

ويدور حول موضوع شائق بالضرورة...

ولا عجب فالحرّية هى ثروة الإنسان الطائلة وهبة الخالق العظمى...

فلو لم تكن الحرّية...

لمَا قُيّضَ للإنسان أن يحب...

ولولا الحب للإنسان لبقى الإنسان وحيدًا...

مغضوبًا عليه، دون الله...

الحرّية فَتْح المسيح العظيم...

والمسيحيـة هـى دين الحـرية...

لـذا تـرى بولس الرسول يكتب ما نصّـه:

[فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا دُعِيتُمْ لِلْحُرِّيَّةِ أَيُّهَا الإِخْوَةُ. غَيْرَ أَنَّهُ لاَ تُصَيِّرُوا الْحُرِّيَّةَ فُرْصَةً لِلْجَسَدِ، بَلْ بِالْمَحَبَّةِ اِخْدِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً] [غلاطية ٥: ١٣]**...**

حـرّية لا تصـدر عن الشريعـة، بـلّ عن الروح...

[وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الرُّوحُ، وَحَيْثُ رُوحُ الرَّبِّ هُنَاكَ حُرِّيَّةٌ] [٢ كورونثوس ٣: ١٧]**...**

حـرّية تنـبـع من صميم الحقيقـة، على حد تعبير القـديس يوحنّـا:

[وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ] [يوحنا ٨: ٣٢]**...**

حـرّية امـتزجـت والحب إلى أقصى الحـدود بحيث قال يوحنّا الرسول:

[وَكُلُّ مَنْ يُبْغِضُ أَخاً لَهُ، فَهُوَ قَاتِلٌ. وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ أَنَّ الْقَاتِلَ لاَ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِ] [١ يوحنا ٣: ١٥]**...**

فمتـى يـا تُـرى أكـون حـرًّا حقًـا؟...

- **أنـا حـرّ عندما أحب مـا أعمـل وعندما لا أعمل إلا ما أحب...**
- **أنـا حـرّ إذا مـا أحببت الأشيـاء والنـاس، فأضـحى هـؤلاء بعدئـذ أكـثر حـرّيـة وكنت أنـا أقـل عـبوديـة...**
- **أنـا حـرّ عندما أتـضوّر ألمًـا واسمع صـوتًـا يهـتف فى أحشـائى: إنـك الآن تُـبعث مـن ممـات...**
- **أنـا حـرّ عندما أؤمـن بإلـه خـلـق كـلّ شئ بحـرّيـة...**
- **أنـا حـرّ عندما أقـبل حـرّيـة الآخـرين...**
- **أنـا حـرّ عندما تكـون حـرّيتى أثـمن مـن المـال...**
- **أنـا حـرّ عندما لا يكـون المـوت فى نظـرى سوى عـبور إلى مـلء الحيـاة وتمامهـا...**
- **أنـا حـرّ عندما أنجـح فى أن أكـون إنسانـًا...**
- **أنـا حـرّ عندما أتوصّـل إلى اكـتـشاف ما يكمـن مـن صـلاح فى كـلّ مخـلوق...**
- **أنـا حـرّ عندما أؤمـن أن لا شئ مستـحـيل...**
- **أنـا حـرّ عندما أذعن فى حيـاتى لسلطـان الضـمـير...**
- **أنـا حـرّ إن كـانت حـرّيتى لا تـقـدّر بثـمن...**
- **أنـا حـرّ إن كـانت شريـعتى الـوحيدة هى المحبّـة...**

- أنـا حـرّ إن كنت أحسن بـذل ذاتـى فى سبـيـل الآخـرين دون أن يكـون الشرط امتـلاكهم...
- أنـا حـر إن كـان صـوتى يساهم فى تحـديد مجـرى التاريـخ...
- أنـا حـرّ إن كنت لا أنـفـك أقـول" لا" فى وجـه الطـغيان، حتى لـو اضـطررت إلى المجـاهـرة بذلك أمـام الدبـابـات...
- أنـا حـرّ إن كنت أدافـع باقـتـنـاع وبـتجشّم الأخـطـار عـن حـرّيـة الآخـرين...
- أنـا حـرّ إن كنت لا أهـب حـرّيتى إلا لـذلك الـذى هـو، دون سواه، أحبّ إلىّ من ذاتـى...
- أنـا حـرّ إن كنت أرتـع فى اليسر ورغـد العيش، ومـع ذلك أفـضّـل حـرّيـة الفـقـراء وأشتـهـيـهـا...
- أنـا حـرّ إن كنت أعـانى من العسر وشـظـف العيش، ومـع ذلك أفـضّـل حـرّيتى عـلى غـنى الآخـرين...
- أنـا حـرّ إن كنت أؤمـن بأن إلـهـى أعظم من خطـيـئـتـى...
- أنـا حـرّ سـاعـة أمنّـى بالإخـفـاق، وأؤمـن رغـم ذلك بأن الله يجـدّد ذاتـى كـلّ صبـاح، وأن كـلّ ساعـة هى خـلق وابتـداء...
- أنـا حـرّ إذا كنت مـقـتنعًا بأن ما نـحـقـقه من خـير وصـلاح لا ينـال منـه الخـراب...
- انـا حـرّ عـندما أؤمـن بأن رحمـة الله أرجـح فى مـيزانـه مـن خبـثـنا وخـطايانـا...
- أنـا حـرّ إن كنت أستـطـيـع أن أتـبيّـن وراء كـلّ ألـم، وكـل خـيانـة، وكـلّ ظـلم ثمـرة لخـطيئـة تضـاد المحبّـة...
- أنـا حـرّ إن كنت أقـدر أن أسمـع فى بـاطن المـادة أصـواتًـا تـدعـو إلى الوحـدة، فـتـعبّر عمّـا يخـتـلـج من حبّ فى أعـمـاق كـلّ شئ...
- أنـا حـرّ إن كنت أؤمـن وطـيـد الإيمـان بأن إنسانًـا مثـلى عـاش ومـا زال بـعـد مـوتـه يحـيا إلى الأبـد...
- أنـا حـرّ إن كنت أشعر بأننى أصـغـر من الله ولكنّـى أعـظم مـن كـلّ مـا هـو مخـلوق...
- أنـا حـرّ إذا مـا صـفـعـونى لأنى قـلت بأن الحـرية هـى الله، وأن الله يـديـن كـلّ من يـدوس حـرية إنسان واحـد أو يسئ إليهـا...

- **أنـا حـرّ لمّـا أخـاطب الله بـدالة...**
- **أنـا حـرّ إن كنت أدرك أن الآخـرين هم بحـاجـة إلىّ...**
- **أنـا حـر عـندما أشعر بأننى قـادر علـى تـطتوير الخـليقـة دون المسـاس بخـالـقهـا...**
- **أنـا حـرّ إذا لـم أخـلط بين السلطـة والتسلّـط، فـنـبعَت السلطـة فى نـظـرى من قـوة الضـمـير تُسَخّـر لخـدمـة الآخـرين...**
- **أنـا حـرّ إذا مـا استـطعت إبـراز انتصـاراتى واكتشافـاتى ومـواهبى وأفكـارى، دون أن يحكـم علىّ أحـد...**
- **أنـا حـرّ ساعـة أؤمن بالآخـرين...**
- **أنـا حـرّ ساعـة أستـطيع حبّ مـا ملكت يـدىّ الآن مـن الحياة، دون أن أهـتـمّ للـغـد...**
- **أنـا حـر ساعـة أحسن النـظـر إلى عـينىّ قـريبى، فـأرى فيهما نضـارة أولى نـظـرات الخـالـق...**
- **أنـا حـرّ إذا مـا أحببت فاكتشف أن الحبّ، الـذى هـو أساس كيـاننـا، ليس إلا ذاك الخـالـق الـذى لا ينـفـك يحيى ويجـدّد مـا يخـلـق فينـا مـن سعـادة...**
- **أنـا حـرّ إن كان الحبّ وحـده قـادرًا على تـقـييـدى...**
- **أنـا حـرّ عـندما أؤمـن بأن الخـلاص يـأتينى مـن الروح لا مـن الشريعـة...**
- **أنـا حـرّ عـندما أدرك أن [** كُلُّ اَلأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لكِنْ لَيْسَ كُلُّ اَلأَشْيَاءِ تُوافِقُ. كُلُّ اَلأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ اَلأَشْيَاءِ تَبْنِي **]** [١ كورونثوس ١٠: ٢٣]**...**
- **أنـا حـرّ إذا مـا احـترمـوا حـقـى فى الاخـتـيار بحسب ما يمـليه علىّ ضـمـيرى...**
- **أنـا حـرّ إن كنت أستـطيع أن أقـول " لا" حـى فى وجـه الله...**
- **انـا حـرّ إذا كان فى وسعى قـبـول السعـادة التى تـأتينى مـن الآخـرين...**
- **أنـا حـرّ لمّا أشعر بالخـجـل من عـبودية قـريبى...**
- **أنـا حـرّ عـندما أقـبـل الآخـرين على ما هم عـليه، لا كمـا أريـدهم أن يكـونوا...**
- **أنـا حـرّ إن كنت أحسن الاهـتداء بحـيث أستـطيع السير إلى جـانب إخـوانى فى مغـامـرة مشـتركـة...**

- أنـا حـرّ إن كنت أفضّـل بـذل حـياتى فى سبـيل إنسان، على بـذلهـا فى سـبـيل فـكـرة...
- أنـا حـرّ إذا مـا أعـطيت الـقـدرة على التخـلّى عن حـقـوقى...
- أنـا حـرّ إن انـعـدمت الأصـنـام فى حـيـاتى، وإن لمستُ فى الأمـور والـنـاس جميـعًا حـضـور كـائن فـريـد، شخـصىّ، حـرّ، لا يمـوت...
- أنـا حـرّ إن كنت أؤمـن بإلـه لـن يـنـدم قـط لأنــه خـلـقـنى حـرًّا...
- أنـا حـرّ عـندما أؤمـن بأن الله يَخْـلـقُ فـىّ...
- أنـا حـرّ سـاعـة أسـتـطـيع الـتـلـفـّظ بالـكـلام الـذى اسـتـودعـنـى إيّـاه الله، لأسـاهـم فى بنـاء الـتـاريخ والإنسان...
- أنـا حـرّ سـاعـة أن أدرك أن عـملى هـو تكمـلـة أعـمـال الخـالق...
- أنـا حـرّ عـندما أوقـن أن المخـلوقـات جميعهـا تساعدنى على تحـقـيـق ذاتى واكتشافهـا...
- أنـا حـرّ إن كنت أعيش فى جمـاعـة، الإنسان فيهـا أهـم من التكـوين والنظـام...
- أنـا حـرّ حيثمـا يعترف النظـام المـدنى بأن كـلّ إنسان هـو مَلِكُ الأحـياء ويسمـو على كـل المخـلوقـات...
- أنـا حـرّ إذا تـعـذر على الأمـور والنـاس طُـرًّا الحـلول محـل ضـمـيرى، وهـو كلمـة الفـصـل التى ينـطـق بهـا الخـالـق فـىّ...
- أنـا حـرّ إذا لم يمـنـعـونى من السير وراء ذلك الكـائن الخـفى ـ ولكـنّـه الحـقـيـقى ـ الـذى أشعر بضـرورتـه المـاسّة لتحـقـيـق ذاتى عـلى أكمـل وجـه...
- أنـا حـرّ إن كنت أقْدِم على على الاختـيـار أيّـًا كـان، لا بـدافـع المتـعـة بـلّ لأجـد فيـه مـا يجـعـل منى إنسانـًا...
- أنـا حـرّ إذا مـا وُجد فى الـدنيـا مخـلوق واحـد يحبّنى...
- أنـا حـرّ إن كنت لا أؤمـن بـالـقـدر، بـلّ بمشيئـة الخـالـق، وبمـا أوكـلته إلىّ من دور أقـوم بـه فى الـتـاريـخ...
- أنـا حـرّ سـاعـة أنجـح فى إنمـاء الحـرّية من حـولى...
- أنـا حـرّ عـندما أكـون أحَـبَّ لخـير قـريبى منى لحـرّيتى ذاتهـا...
- أنـا حـرّ عـندما أنجـح فى إقـنـاع الآخـرين بحـقـيـقـتى ، دون أن أقـهـرهم وأحـط من قـدرهـم...

- **أنـا حـرّ إذا مـا كنت مقـتنـعـًا بأنّى لست إنـاءً مليئـًا يطـفـح، بـلّ على العكس بأنى لا أنـفـك بحـاجـة إلى الآخـرين...**
- **أنـا حـرّ إن كنت لا أيـأس مـن قـدرتى على العطـاء ولـو بشكـل محـدود...**
- **أنـا حـرّ ساعـة لا أقبل عدم حـرّيتى...**
- **أنـا حـرّ إن كنت أحب أن أكـون حـرًّا...**

لـذا فعـندما أشعـر من نفسى بأنى حُـرّ، أشعـر بأنـى أشبـه شئ بالله، فأستـطيـع المساهمـة مـعـه فى المحبـّة، أشعـر بأنـى إنسان مسؤول...

أشعـر بأنـه يحـق لـى أن أُدْعَـى باسم خـاص بى...

يتـلفّظ بـه الله مـرة واحـدة فيضـفـى عليـه صـفـة الخـلود والأبـديـة...

أشعـر بأنـى فى صميم حيـاتـى مَلِك الخـليقـة، لأنـه، والحـق يقـال:

[طُوبَى لِلأَحْـرَارِ فَأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ]

إلـهـى شـابٌ

إلـهى نضـير فى نضـارة الصـباح...

إلـهى ليس فيه تغـيـير ولا ظـل دوران...

لـذا فهـو شـاب أبـدًا...

إلـهى لا أثـر فيـه لبـذور المـوت...

إلـهى لا يمكـن الشيـخـوخـة أن تنـال منـه...

هـو كمـال واكتمـال، هـو بـلـوغ دائـم الشـاب...

هـو نـهـار شمسـه لا تغـيب...

هـو شبـاب أبـدى...

لـذا فإنـه الحـياة...

[صَنَعَ اَلْكُلَّ حَسَناً فِي وَقْتِهِ وَأَيْضاً جَعَلَ اَلأَبَدِيَّةَ فِي قلبهِم اَلَّتِي بِلاَهَا لاَ يُدْرِكُ اَلإِنْسَانُ اَلعَمَلَ اَلَّذِي يَعْمَلُهُ اَللّهُ مِنَ اَلبِدَايَةِ إِلَى اَلنِّهَايَةِ] [الجامعة ٣: ١١]...

الشبـاب هـو التشبُّـه بإلـهى...

لـذا فإنـه يـرقـد، فى أعـمـق أعـماق كـلّ مخـلوق، رغـبةٌ سـريـة فى الشبـاب...

لـذا فإنـه مـا من أحـد يحـب تخطّـى عتبـة الشيخـوخـة...

لـذا فإن كـلّ من يقـترب مـن الشيخـوخـة يتـألم بلا هـوادة...

لذا فثمّة جاذبية عجيبة تدفع بالشيخ نحو الشاب، ويشدّه إليه حنين يمتزج بالحسد، فيه العذوبة وفيه المريرة...

الشبب اكتمال الأحلام، ورشد، وبلوغ فى العطاء والخيال والأمل والجمال...

هو أن يقول الحبّ: " نعم"..

أسهل على الشاب من الشيخ أن يبذل حياته...

أسهل على الشاب من سواه أن يكون بطلاً ويندفع متحمّسًا فى سبيل فكرة أو عقيدة...

الشاب يموج فيه الحبّ ويغلى عنيفًا فتيًا...

ليس الشباب عبورًا ولا هو تمرين أو إبتداء، بلّ هو زمن السمو حيث تأخذ الحياة معناها...

إنه وقت القرارات الحاسمة وأقصى حدود العفوية...

إنه خير الأوقات لسماع صوت المسيح يقول لنا:

[فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا] [متى ١٦ : ٢٥]...

[فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا] [مرقس ٨: ٣٥]...

[فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي فَهَذَا يُخَلِّصُهَا] [لوقا ٩: ٢٤]...

لذا فلن يُقيَّضَ لأحد أن يكون حيًّا مخصابًا، ما لم يحافظ، فى خضمّ تسارع الزمن القاسى، على بطولة الشباب وعفويته وحيويته...

لن يمِتّ إلى الإلوهة بصِلة إلا من يرفض فى قرارة نفسه التخلّى عن شبابه...

لذا فإنه يصعب قبول إلهى الشاب (إلهى الوثّاب، إلهى الشاب رغم العوائق، إلهى الشاب بالذات) على جميع الذين نبذوا وراء ظهورهم الشباب وخير ما فيه، وراحوا يسعون وراء التعزية الرخيصة، فسقطوا على إلهى خمولهم وتقهقرهم ، وقد عدّوها فضيلة من الفضائل...

وإنهم ليريدون أن يفكّر إلهى كما يفكّرون، وأن يشعر كما يشعرون، وأن ينظر إلى الدنيا وكلّ ما فيها من خلال عيونهم المطفأة...

وإنهم ليسمّون خبرة ما قد لا يكون إلا خيبة...

ويسمّون اختمارًا ورشدًا ما قد لا يكون إلا تعبًا...

ويسمّون فطنة وحذرًا ما ليس إلا تقيدًا بالتقاليد...

ويسمّون خصبًا ما قد لا يكون إلا تشبثًا بآخر نبضات الحياة إلا أن إلهى شاب، أبدًا...

وإذا ما شاخ المرء قلبًا، فالله يظلّ فتيًا...

لذا فإن إلهى لا يزال قريبًا من الذين هم أقرب إلى الشباب ...

[أَرْجُلُهُمْ إِلَى الشَّرِّ تَجْرِي وَتُسْرِعُ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ الزَّكِيِّ. أَفْكَارُهُمْ أَفْكَارُ إِثْمٍ. فِي طُرُقِهِمِ اغْتِصَابٌ وَسَحْقٌ. طَرِيقُ السَّلاَمِ لَمْ يَعْرِفُوهُ وَلَيْسَ فِي مَسَالِكِهِمْ عَدْلٌ. جَعَلُوا لأَنْفُسِهِمْ سُبُلاً مُعَوَّجَةً. كُلُّ مَنْ يَسِيرُ فِيهَا لاَ يَعْرِفُ سَلاَماً... فَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ وَتَحَيَّرَ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ شَفِيعٌ. فَخَلَّصَتْ ذِرَاعُهُ لِنَفْسِهِ وَبِرُّهُ هُوَ عَضَدَهُ. فَلَبِسَ الْبِرَّ كَدِرْعٍ وَخُوذَةَ الْخَلاَصِ عَلَى رَأْسِهِ] [أشعياء ٥٩: ٧ ، ٨، ١٦، ١٧]...

[فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ أَفْكَارٌ كَثِيرَةٌ لَكِنْ مَشُورَةُ الرَّبِّ هِيَ تَثْبُتُ] [امثال ١٩: ٢١]...

[لأَنْ مِنَ الْقَلْبِ تَخْرُجُ أَفْكَارٌ شِرِّيرَةٌ: قَتْلٌ زِنىً فِسْقٌ سِرْقَةٌ شَهَادَةُ زُورٍ تَجْدِيفٌ] [متى ١٥: ١٩]...

إلهى شاب لأنه دائم الرجاء...

لأنه يحسن تبيّن ما يكمن فى الأمور من صلاح...

لأنه يستطيع التقاط همسات الحياة الخفية التى تتفتّق براعمها فى كلّ صوب ليظلّ العالم على شبابه...

[الَّذِي نَجَّانَا مِنْ مَوْتٍ مِثْلِ هَذَا، وَهُوَ يُنَجِّي. الَّذِي لَنَا رَجَاءٌ فِيهِ أَنَّهُ سَيُنَجِّي أَيْضاً فِيمَا بَعْدُ] [٢ كورونثوس ١: ١٠]...

[الَّذِينَ ارَادَ اللهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هَذَا السِّرِّ فِي الأُمَمِ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ] [كولوسى ١: ٢٧]...

إلهى يدرى أن النصر فى النهاية هو حليف الحياة...

إلهى لا تشوبه سيئات الشباب ولا رذائل الشيوخ...

إلهى يتمتع بمزايا الجميع، إلا أنه، فوق كلّ شئ، مشبّع شبابًا لأنه الشاب إلى الأبد...

إلهى هو من يجعل سائر الأمور جديدة ، أعنى أنه يبثها الشباب...

إلهى هو من يطلق العنان فى آخر الأزمان، يوم القيامة العامة، لشباب الأجيال مدى الأبد...

[عَلَى رَجَاءِ اَلْحَيَاةِ اَلأَبَدِيَّةِ، اَلَّتِي وَعَدَ بِهَا اَللهُ اَلْمُنَزَّهُ عَنِ اَلْكَذِبِ، قَبْلَ اَلأَزْمِنَةِ اَلأَزَلِيَّةِ] [تيطس ١: ٢]...

[ثُمَّ قَالَ لِي: قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ اَلأَلِفُ وَاَلْيَاءُ، اَلْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي اَلْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ اَلْحَيَاةِ مَجَّاناً.

مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلهاً وَهُوَ يَكُونُ لِيَ اِبْناً.

وَأَمَّا اَلْخَائِفُونَ وَغَيْرُ اَلْمُؤْمِنِينَ وَالرَّجِسُونَ وَاَلْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ وَالسَّحَرَةُ وَعَبَدَةُ الأَوْثَانِ وَجَمِيعُ اَلْكَذَبَةِ فَنَصِيبُهُمْ فِي اَلْبُحَيْرَةِ اَلْمُتَّقِدَةِ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ، اَلَّذِي هُوَ اَلْمَوْتُ اَلثَّانِي] [رؤيا ٢١: ٦ - ٨]...

نحن والقيامة

مقدمة:

[يَا اِمْرَأَةُ لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟] [يوحنّا ٢٠ : ١٥]...

كان هذا أول كلام تلفظ به المسيح بعد قيامته من الأموات...

وأول اسم نبسته شفتاه كان اسم امرأة: " مريم"...

وأول عينين أبصرتا وجه المسيح الجديد، وأول يدين لمستا جسد آدم الجديد القائم من الأموات كانت عينا امرأة ويدا إمرأة:

[وَفِيمَا هُمَا مُنْطَلِقَتَانِ لِتُخْبِرَا تَلاَمِيذَهُ إِذَا يَسُوعُ لاَقَاهُمَا وَقَالَ: { سَلاَمٌ لَكُمَا }. فَتَقَدَّمَتَا وَأَمْسَكَتَا بِقَدَمَيْهِ وَسَجَدَتَا لَهُ] [متى ٢٨: ٩]...

وإذا بصباح القيامة يلتقى صباح أول أيام الخلق...

فثمّة كانت المرأة تختبئ من خالقها وقد أخجلتها الخطيئة...

وهنا يأتى المخلّص لملاقاة المرأة المفتداة، فيرسلها تنقل البُشرى...

لقد قهر المسيح الخطيئة والموت...

وأعاد للإنسانية ما فقدته من نقاء كان نصيبها فى جنة عدن...

وإذا بالموت يُبَدّل اسمه...

فالحياة لا تزول به ، بلّ تتبدّل...

ومن تلك اللحظة تستطيع مريم المجدلية : (كما يستطيع كل إنسان حىّ) أن تهتف فرحة وتقول:

" لن أموت، لا أنا ولا جسدى ولا روحى ولا أى جزء من كيانى"...

إنه هتاف الفصح، يطلقه المسيحيون...

الفصح مستمر:

إلا أنه من المؤسف أن يكون الفصح فى نظرنا اليوم عيدًا وذكرى...

لا واقعًا حياتيًا...

أناس كثيرون يرون أنه ذكرى لأمر " مضى"...

أى قيامة السيد المسيح...

ولا يدركون أنه أمر يدوم، أعنى " أننا الآن نقوم من الأموات"...

ينبغى أن يكون الفصح ذلك اليوم الذى نغنّى فيه، نحن المسحيين، مع إخواننا، ولكن ينبغى أن يكون قبل كلّ شئ اليوم الذى نعلن للعالم فرحنا لأننا على يقين من القيامة، وفرحنا لأن حبّنا تجدّد ، وأملنا فى انتصار الحياة على الموت انتصارًا لا يزول، وما سبب ذلك إلا لأن الفصح هو بالحقيقة كلّ لحظة من لحظات حياتنا، فصحنا دائم، فصحنا كائن إلى الأبد...

ومن هذا المنطلق، أشعر وأنا على عتبة التكلّم عن حقيقة الفصح الحيّة، بالحيرة، وأخشى أن أظلّ فى نطاق النظريات البحتة محدِّدًا ما هو الفصح، لا ما هو " فصحنا"...

يُخيّل إلىّ أن الإلحاد المعاصر مردَّه الأعظم إلى كوننا قدّمْنا للعالم خبرتنا فى الإيمان، دون أن نجسّدها فى الواقع...

فكانت مجرّدة، إذ يصعب علينا التكلّم عن إيماننا نحن...

ولقد أثّر فىّ كلّ التأثير أحد الجامعيين الشباب، لمّا انتهى من نقاش طويل حول فيلم برجمان " المتناولون"، وسألنى دون مسايرة ولكن بكثير من الصدق والإخلاص:

" إن ما أريد أن أعرفه هو: لماذا أصبحت كاهنًا، وما معنى الإيمان فى حياتك أنت؟"...

أنا واثق كلّ الثقة بأن إنسان اليوم أحوج ما يكون إلى الوصول إلى الإيمان من خلال خبرة قريبه الحياتية...

وما دامت هذه الحاجة ضرورة، فأغلب الظن أنها الطريق الذى يريده الروح القدس اليوم...

لعل الإنسان المعاصر متخوم، أتخمته الأيديولوجيات والعقلانيات، ولعله فى أمور الإيمان بحاجة إلى تبصّر نور الحقيقة فى عينى قريبه...

والعثور على الرجاء فى يديه المبسوطتين للعطاء، وفى قلبه الزاخر بالتفهّم والمقدرة على الحوار والصداقة والثقة...

لذلك فقد آثرت ألا أقول ما " أعرفه" أنا عن حقيقة الفصح، وألا أبدى نظريات علماء اللاهوت المعاصرين فيها...

بلّ أن أقدّم رأيًا " شعبيًا" فى هذا الحدث العظيم...

لقد فضّلت اللجوء إلى شهادة مسيحى مجهول، أحد الذين لا يَرد لهم ذكر فى الصحف أو المجلات، أحد الذين يعيشون مثلك، يومًا بعد يوم، المغامرة الإنسانية فى عظمتها وبساطتها...

ولمّا كان المسيح قد اختار إمرأة لإعلان بُشرى الفصح السعيدة، فقد اخترت أنا أيضًا إمرأة...

اخترتها فتاة ليكون صوتها عذبًا، جرئًا، عفويًا، صادقًا، حيًا...

وهى ليست من ذوى الثقافة الجامعية ولا من أرباب الفكر...

وما ستقوله لك إن هو إلا ثمرة خبرتها المعاشة ، ولا هو مقتبسًا من كتاب صلاة...

إنها فتاة أشبه باللواتى تلتقيهن كل يوم فى الشارع والمكتب والكنيسة...

إنها " إحدى المسيحيّات" على حدّ ما وقّعت نصّها، وقد زادت بين هلالين (عمرى تسع عشرة سنة ودروسى ابتدائية)...

كانت تستمع إلى محاضرة دعا إليها فريق من الشباب، فسألتها أن تكتب بصورة عفوية:" ما هو الفصح فى نظرها؟"...

فكان جواب هذه الفتاة المجهولة أصفى ما عَرَفْتُ مسيحيًا وأعمق ما رأيتُ لاهوتيًا...

قرأت الجواب وأعدت قراءته مرة بعد مرة، وفكّرت فيما كتبه اللاهوتى الكبير " كارل راهنر":

" لا يحقّ لنا أن نقيم الحدود الاعتباطية لنعمة المسيح خارج الكنيسة، ونقول بأن عنصر المواهب الروحية هو وقف على تلك الكنيسة"...

أجل، وبأولى حجة لا يحق لنا أن نضع حدًّا لمواهب الروح داخل الكنيسة، جاعلينها وقفًا على نخبة من الإكليروس وأرباب السلطة الدينية...

فقد كتب " كارل رهنر" أيضًا:

" لو كان قلبنا على قسط ضئيل من البساطة، لوجدنا فى الكنيسة العجب العجاب، لا فى سجلات تارخها فقط، بل أيضًا فى أمانة بنيها الخفية، وفى طيبتهم المجرّدة عن المصالح، وفى إقرارهم غير المتساهل بالحقيقة رغم ما ينتج لهم عن ذلك من متاعب، وفى ثقتهم بأن قلب الله أعظم وأرحب وأغنى رحمة من قلبنا"...

هذه الصفحة إحدى المسيحيات المجهولات، المعدومات الثقافة، لهى مثالٌ، بين ملايين الأمثلة، من غنى الكنيسة الخفية التى غالبًا ما تجهلها السلطة الكنسية، والتى هى بلا شكّ الخميرة الحق فى عجين الجماهير، والملح الحقيقى الذى بفضّله تُصان كنيسة المسيح من الفساد...

نقول، باستخفاف غريب، أن شبيبة اليوم لا تشعر بالحقائق التى تتعدّى المرئيات، وأنها سطحية فى أمور الروح...

أليس مرد ذلك إلى كوننا نفتقر إلى حسّ مرهف، نستطيع به سماع أصوات ضميرها العميقة، والرسالة المتجدّدة التى يبثنا إيّاها الروح القدس بواسطتها؟...

صوت من العامة ينشد نشيد الفصح:

" الفصح فى رأيى حبور واغتباط...

أعرف أن المسيح قام...

أشعر بذلك، وذلك يغمرنى بالفرح...

أفرح إذ أشعر بأنى فى اتحاد مع الخالق والخليقة...

أفرح إذ أرى صورتى فى عينى الإنسان فأستطيع أن أقول له:" كلانا جديد مجدّد...

ها قد ولّت المحنة، فقد انتشلنا المسيح من عزلة كانت لا تنفك تزيدنا فقرًا...

وإذا به يقودنا إلى الحبّ...

أعنى يُعيدنا إلى طبيعتنا الحقيقية...

طبيعة بشر خُلقوا للحبّ...

وها نحن نستطيع الآن التنزّه فى الخليقة وبذل أنفسنا للجميع...

ها نحن نستطيع الآن المجاهرة بأننا بشر يحملون فى صدورهم صورة الخالق...

أعنى أنهم يكتشفون...

لا بلّ يملكون القدرة على بذل ذواتهم...
ونسيان عزلتهم وطول محجتهم على هذه الأرض منذ الخطيئة الأصلية...
ها نحن نستطيع مُنذ الآن السير نحو ذلك الكمال الإنسانى الذى يُدعى يسوع المسيح...
ويسعنا الآن الشعور بأننا من أسرة الله ما دام الله اكثر من خالق وسيد الخليقة...
ما دام الله أبًا حقًا للإنسان وأخًا حقًا له بواسطة المسيح...
لذا، فإنه بوسعنا المساهمة مع الله فى إكمال الإنسان والأشياء بصورة مستمرّة...

الفصح!

فى نظرى سرّ ينبغى تفسيره...
وفى الوقت ذاته حقيقة رائعة ينبغى أن أعيشها...
لو كنت أحسن التعبير عن فكرتى باستعارة لقلت:
لقد خُطِبَتْ الإنسانية فى مريم إلى الله فى يسوع المسيح...
والأناس الأحرار الذين يقبلون أن يولدوا من هذا الزواج العجيب سوف يعرفون الحب...
وهو الأمر الوحيد الذى يعطى حياتنا معنى وهدفًا...
وما عسانى أزيد فأقول عن فصحى؟"...

إحدى المسيحيات،،،

لا شكّ أن أقلّ ما يدعو إلى الاهتمام فى هذه الأسطر هو دقتها اللاهوتية...
فالمهم فيها غناها العفوى النابع من خبرة دينية أصيلة، حرّة، نضرة...
خبرة نجد فيها سائر العناصر التى يجدها اللاهوتيون فى السر الفصحى...
أجل، ففيما كان فصح اليهود يحيى ذكرى خروجهم من مصر، أرض العبودية،...
إذا بالفصح المسيحى يجمع سائر تلاميذ المسيح ويوحدهم بالرب، الذى حررهم من الخطيئة بموته وقيامته، فى سر عشاء الرب...
لذا، فقد ركّزت فتاتنا فصحها على المسيح، وأدركت أنها أعتقت من الخطيئة فى أقرب الأبعاد إلى حياتها وواقعها، ألا وهو " العزلة"، وقد فهمت أن التحرّر بالنسبة إليها هو ما يُدخل الإنسان مُذ الآن فى أرض الميعاد الوحيدة، أى الحبّ...
والفصح هو اغتباط وحبور حىّ عندما يصل الإيمان إلى حدّ من الاستنارة يتحوّل معه إلى حكمة وخبرة...
فالفصح، إذا ما أدرك فقط، بقى فصحًا لا حرارة فيه...
لذا فقد قالت الفتاة عن القيامة:

" أعرف أن المسيح قام...أشعر بذلك، وذلك يغمرنى بالفرح.."

وإذا كان الفصح عند اليهود عيدًا عائليًا...

فقد صار مع المسيح أكثر من ذلك...

إذ أصبح شركة معه وإتحادًا...

بالفصح المسيحى يقدّم يسوع ذاته طعامًا...

ومن يتناوله من تلاميذه ، يتناول السماء والأرض ويمسى معهما فى شركة واتحاد...

ذلك ما يجعل فرح الفصح فرحًا مشتركًا، عائليًا، أخويًا، لأن التحرّر بالمسيح ينفى كلّ أثرة وأنانية...

ذلك ما عبّرت عنه الفتاة لمّا كتبت:

" أفرح إذ أشعر بأنى فى اتحاد مع الخالق والخليقة...

أفرح إذ أرى صورتى فى عينى الإنسان فأستطيع أن أقول له:" كلانا جديد مجدّد.."

كلام كأنه من صميم الكتاب المقدس: " كلانا جديد"...

فبولس الرسول ينبئنا:

[فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ.

فَمَاذَا إِذاً؟ أَنُخْطِئُ لأَنَّنَا لَسْنَا تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ؟ حَاشَا!

أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي تُقَدِّمُونَ ذَوَاتِكُمْ لَهُ عَبِيداً لِلطَّاعَةِ أَنْتُمْ عَبِيدٌ لِلَّذِي تُطِيعُونَهُ إِمَّا لِلْخَطِيَّةِ لِلْمَوْتِ أَوْ لِلطَّاعَةِ لِلْبِرِّ؟

فَشُكْراً لِلَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ عَبِيداً لِلْخَطِيَّةِ وَلَكِنَّكُمْ أَطَعْتُمْ مِنَ الْقَلْبِ صُورَةَ التَّعْلِيمِ الَّتِي تَسَلَّمْتُمُوهَا.

وَإِذْ أُعْتِقْتُمْ مِنَ الْخَطِيَّةِ صِرْتُمْ عَبِيداً لِلْبِرِّ] [رومية ٦: ١٤ ـ ١٨]...

وفى :

[مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ] [كولوسى ٢: ١٢]...

ودانيال النبى يتكلم عن " الحياة الجديدة المنوّرة":

[وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ] [دانيال ١٢: ٢]...

ويوحنا الإنجيلى يعلن أننا قد قمنا من الأموات...

[إِنَّ مَحَبَّتَنَا لإِخْوَتِنَا تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّنَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. فَالَّذِي لاَ يُحِبُّ إِخْوَتَهُ، فَهُوَ بَاقٍ فِي الْمَوْتِ] [١يوحنا ٣: ١٤]...

الواقع اللاهوتى هو أننا منذ قيامة السيد المسيح، أناس " جدد"، مما له أبعد الأثر على مناقبية " الإنسان الجديد" القائم مع المسيح، بحسب ما فهمه القديس بولس:

[فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ] [كولوسى ٣: ١]...

فالمسيحى فى نظر رسول الأمم يشعر فى جسده بالشوق المتحرّق إلى التحوّل التام، وما ذلك إلا لأنه يحمل فى قلبه عربون العرس العتيد:

[لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزاً عَنْهُ فِي مَا كَانَ ضَعِيفاً بِالْجَسَدِ فَاللَّهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ] [رومية ٨: ٣]... و

[وَلَكِنَّ الَّذِي صَنَعَنَا لِهَذَا عَيْنِهِ هُوَ اللَّهُ، الَّذِي أَعْطَانَا أَيْضاً عَرْبُونَ الرُّوحِ] [٢ كورونثوس ٥: ٥]...

وما القيامة الأخيرة إلا تجلّى ما قد أصبح حقيقة فى ذواتنا:

[مَتَى أُظْهِرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ تُظْهَرُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ فِي الْمَجْدِ] [كولوسى ٣: ٤]...

لذا فإنه من الطبيعى أن الذى يعيش الفصح على حقيقته، يشعر حتى فى جسده أنه " جديد"، وبانه سعيد بذلك ويحتاج إلى إعلان هذه الحالة على إخوته وعلى الملأ...

وثمّة مقياس واحد لنتبيّن أننا قمنا حقًا من الأموات، وهو حبّ البشر ...

ذلك ما قاله يوحنا الرسول بوحى من الله:

[إِنَّ مَحَبَّتَنَا لإِخْوَتِنَا تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّنَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. فَالَّذِي لاَ يُحِبُّ إِخْوَتَهُ، فَهُوَ بَاقٍ فِي الْمَوْتِ] [١يوحنا ٣: ١٤]...

ولهذا السبب ترى الذى قام حقًا من الأموات يسلك مسلك هذه الفتاة، فيشعر بأنه مدفوع إلى البحث عن نظرة من قريبه، عن الشركة معه، عن البذل والعطاء...

وما عسى تكون ثمار هذه " الحياة الجديدة" ؟...

إنها أشبه شئ بالعودة إلى الفردوس، إلى ما قبل الخطيئة...

لذا، تشعر هذه الفتاة من نفسها بدافع إلى :

" التنزّه فى الخليقة وبذل أنفسنا للجميع..."...

تلك هى الصداقة الجديدة بين الإنسان والخليقة جمعاء...

وكانها بشير ينبئ بأن لا شئ بعد الآن يقوى على إيذائه، إذ أن:

[فَكُلُّ مَوْلُودٍ مِنَ اللهِ، لاَ يُمَارِسُ الْخَطِيئَة، لأَنَّ طَبِيعَةَ اللهِ صَارَتْ ثَابِتَةٌ فِيهِ. بَلْ إِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمَارِسَ الْخَطِيئَة، لأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ] [١يوحنا ٣: ٩]...

كما أنـه:

[لَيْسَ فِي الْمَحَبَّةِ أَيُّ خَوْفٍ. بَلِ الْمَحَبَّةُ الْكَامِلَةُ تَطْرُدُ الْخَوْفَ خَارِجاً. فَإِنَّ الْخَوْفَ يَأْتِي مِنَ الْعِقَابِ. وَالْخَائِفُ لاَ تَكُونُ مَحَبَّةُ اللهِ قَدِ اكْتَمَلَتْ فِيهِ وَنَحْنُ نُحِبُّ، لأَنَّ اللهَ أَحَبَّنَا أَوَّلاً] [١يوحنا ٤: ١٨]...

إنك لتشعر وأنت تطـالع صـفحة صـديقتنا الشابة هـذه...

بلهجـة تخـفـق فيها روح القـيامة علـى نحـو ما يفهمها الكتاب المقـدس...

فهـذا المفهـوم يخـتلف عما يراه الكـثيرون من المسيحيين، السائرين فى ركـاب الفـلسفـة اليونـانيـة...

مـن أن الروح غـير المـائتة تتحـرّر من الجسد لتـدخـل فى أبـدية مـع الله...

بـلّ أنه يقـول بقـيامة " الشخـص" كاملاً فى جسده وروحـه، محـقـقـًا بذلك الانتصـار علـى المـوت...

إنـه يقـول بشخـص يُبْـعث فى جسده فى " الأرض الجـديدة" ويمسى أخـًا للمسيح الكلمـة المتجسد وهـو باكورتنـا...

[وَلَكِنْ إِنْ كَانَ الْمَسِيحُ يُكْرَزُ بِهِ أَنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْمٌ بَيْنَكُمْ إِنْ لَيْسَ قِيَامَةُ أَمْوَاتٍ؟] [١كورونثوس ١٥: ٢٠]...

لـذا، يـدفـع الفـرح الفـصحى فـتاتنا إلى التفكـير بخـالقها...

لـذا، تراها تتـشوّق إلى الاتحـاد بالخـليقـة كلها...

وتشعـر بأن كمـال الإنسان يكـون فى المسيح ومـع المسيح...

الذى يدعـونا إلى " المساهمة مع الله فى خـلق مكمّـل للإنسان والأشياء بصـورة مستمـرة"...

إنـه علـم اللاهـوت الحـديث بالذات، مـا سمّى بلاهـوت " التجسد" أو لاهـوت " المعـاد"...

وقـوامـه أن المعـاد ليس بمكـان " آخـر" أو وقت " آخـر"، بل هـو نهـاية تطـوّر نحـن الآن فـيه وندفعـه إلى الأمـام فى كـلّ لحظـة، بسعينا إلى تطـوير العـالم وبإدخـالنـا خمـير الخـلاص فى التاريخ...

إنـها فكـرة راسخـة الجـذور فى الكتاب المقـدس...

حيث نقرأ أن المسيح بتجسده وقيامته يؤالف بين الأرض والسماء فى وحدة لا تنفصم...

هو الذى نال كل سلطان فى السماء وفى الأرض وأبرم " العهد الجديد"...

[الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ.

لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ.

وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ.

لِذلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ

لِكَيْ تَجْثُوَ باسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ،

وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ لِمَجْدِ اللهِ الآبِ] [فيليبى ٢: ١٠]...

لم يفقد الإنسان الجديد جذوره الأرضية، بل الأمر على العكس، إذ يصلى القديسون:

[وَهُمْ يَتَرَنَّمُونَ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً قَائِلِينَ: مُسْتَحِقٌّ أَنْتَ أَنْ تَأْخُذَ السِّفْرَ وَتَفْتَحَ خُتُومَهُ، لأَنَّكَ ذُبِحْتَ وَاشْتَرَيْتَنَا لِلَّهِ بِدَمِكَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ وَأُمَّةٍ، وَجَعَلْتَنَا لإِلهِنَا مُلُوكاً وَكَهَنَةً، فَسَنَمْلِكُ عَلَى الأَرْضِ] [رؤيا ٥: ٩، ١٠]...

وهو، وإن كان فى طريقه إلى تمام الأزمنة، فلا يسعه أن يصمّ أذنيه عن أنين الخليقة التى تنتظر هى أيضًا الخلاص:

[فَإِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَئِنُّ وَتَتَمَخَّضُ مَعاً إِلَى الآنَ] [رومية ٨: ٢٢]...

ولئن كانت هذه الحقيقة على جانب من الغموض، فلا يجوز أن يُتّخذ من ذلك ذريعة للتكاسل أو القنوط...

لأن الأرض الجديدة قد بدأت وبوسعنا الوصول إليها عن طريق الحكمة...

وهذه الحكمة هى المسيح نفسه...

الحى فينا والمتحوّل إلى معاد سابق لأوانه:

[وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ

الحقَّ الحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدِ انتَقَلَ مِنَ المَوْتِ إِلَى الحَيَاةِ.

أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَداً] [يوحنا ٤: ١٤ و ٥: ٢٤ و ٦: ٣٥]...

لأنه أعاد الأرض إلى ما سبق أن نعمت به من تآلف وانسجام بين الخلائق فى جنة عدن:

[وَكَانَ مَعَ ٱلْوُحُوشُ] [مرقس ١: ١٣]...

لـذا فإن كـلّ مسيحى مخـلص، إذا ما قـبل المسيح الحى، ليستطـيع ـ رغم ما يحـالجه من قلق ورهـبة أمام السر ـ أن يهتف عـلى نحتو ما هتفت الفـتاة:

" الفصـح!

فى نظـرى سرّ ينبغى تفسيره...

وفى الوقت ذاتـه حـقـيـقة رائعـة ينبغـى أن أعيشهـا..." ....

ولقـد أدركت هـذه الشابة أيضـًا أنـه لا بـدّ، للوصـول إلى " عيش الفـصح بالفـرح" ، من " الولادة الجديدة" ، على حـد ما قـاله المسيح لنيقـوديموس:

[فَقَالَ يَسُوعُ: { الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ }.

أَجَابَ يَسُوعُ: { الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ.

اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.

لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ.

اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ }] [يوحنا ٣: ٣، ٥ـ ٨]...

الولادة الجـديدة تعنى القـيامة مع المسيح وهى المعمودية...

[مَدْفُونِينَ مَعَهُ فِي الْمَعْمُودِيَّةِ، الَّتِي فِيهَا أُقِمْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ بِإِيمَانِ عَمَلِ اللهِ، الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ] [كولوسى ٢: ١٢]...

لا شك أن النفس الممعنة فى مسيحيتها، غـالبـًا ما تفـوق اللاهوتيين إدراكـًا لحـقـائق عمـيـقة وخـفـيّة...

يتم جـلاؤهـا فى ضـوء حكمتة تنبـع من بساطـة الإنجـيل...

فبساطـة الإيمـان أعـمق من الفلسفـة...

[اُنْظُرُوا أَنْ لاَ يَكُونَ أَحَدٌ يَسْبِيكُمْ بِالْفَلْسَفَةِ وَبِغُرُورٍ بَاطِلٍ، حَسَبَ تَقْلِيدِ النَّاسِ، حَسَبَ ارْكَانِ الْعَالَمِ، وَلَيْسَ حَسَبَ الْمَسِيحِ]

[كولوسى ٢: ٨]...

إلـهى مذهل محـيّر

إلـهى مذهل محـيّر...

هـو فى صميـم كل شئ، وهـو متعالٍ عـن كل شئ...

هـو وديـع، وهـو عـنيف...

هـو أزلى ولا ينفـك فى ولادة...

[فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ... وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً] **[يوحنا ١: ١ ، ١٤]...**

يخـلقنـا للسعـادة، والألـم هـو خـبزنـا اليـومى...

يبارك ما يخشاه الكـثيرون...

ويحبّ ما يزدريـه الكـثيرون...

ويطـلب المستحـيل...

تقـاتلوا من أجـله وهـو المحبّ للسلام...

إنـه إله وإنسان...

إنـه أحـد وثـالوث...

[فَإِنَّ هُنَالِكَ ثَلاَثَةٌ شُهُودٍ فِي السَّمَاءِ، الآبُ وَالْكَلِمَةُ وَالرُّوحُ الْقُدُسُ، وَهَؤُلاءِ الثَّلاَثَةُ هُمْ وَاحِدٌ... إِنْ كُنَّا نُصَدِّقُ الشَّهَادَةَ الَّتِي يُقَدِّمُهَا النَّاسُ، فَالشَّهَادَةُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا اللهُ أَعْظَمُ، لأَنَّهَا شَهَادَةٌ إِلَهِيَّةٌ شَهِدَ اللهُ بِهَا لابْنِهِ] **[١يوحنا ٥: ٧، ٩]...**

ينـدّد بالظالمين، ويتحمّـل الظـلم...

هـو الآب القـادر علـى كـلّ شئ، وما زالت الآلام تكتـنـف الأرض وسكانـها...

يطـلب منّـا أن نفتتـح العالم، ونـعيش فيه، ونـحب كل ما يمت إلى دنيـا الإنسان بصـلة، ويريدنا من منتظـرى الميعـاد...

يطلب من الجميـع القـداسة، ويختار هامة لكنيسته من خانـه من بين الرسل....

أقـرب النـاس إلى قلبـه هـم الضعفـاء والفـقـراء، ولكنهم ما زالوا ألصـق النـاس بالآلام...

يخـط شريعـته فى ضمـير كلّ واحـد منـّا...

إنـه دائم الوجـود، ولا نـراه بأم العين...

[إِنَّ اللهَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قَطُّ. وَلَكِنْ، حِينَ نُحِبُّ بَعْضُنَا بَعْضاً، نُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ يَحْيَا فِي دَاخِلِنَا، وَأَنَّ مَحَبَّتَهُ قَدِ اكْتَمَلَتْ فِي دَاخِلِنَا] **[١يوحنا ٤: ١٢]...**

إنـه حـياتنا كـلّها، ولا قِبَـل لنا بوصـفه...

مَن أحَبّ قـريبه أحـبّه هـو، ومع ذلك فإنـه يظـل الوحـيد...

[وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ اَلَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ ... فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ اَلَّذِي فِي اَلسَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ **] [متى ٥: ٤٣، ٤٨]...**

على قدر اقترابك منه، يزداد حبّك له وينقص سماعك له...

إنه الحرّية، وإنه ليدعو إلى الطاعة...

إنه الحب، وثمّة جهنّم...

يرفع من شأن الزواج فيجعل منه سرًّا مقدّسًا وصورة لاتحاده بالكنيسة، ولكنّه هو وأمه بتولان...

إنه قلب تاريخنا وما من شعرة واحدة تقع من رؤوسنا إلا بإذنه، وثمّة ملايين من البشر يعتبرون أنه زال وأنه من النوافل...

إنه فى الآن ذاته أفراح وآلام...

إنه القدّوس، وكان صديق الخطأة، إنه الطاهر، وقد سمح الخاطئات أن يلمسنه، لقد دان الأغنياء وآكلهم...

إلهى المحيّر يصعب قبوله على من يريدون تحديد الأمور كلها...

على من يريدون أن يفرضوا عليه المنطق...

[لَعَلَّكَ تُنَاقِضُ حُكْمِي. تَسْتَذْنِبُنِي لِتَتَبَرَّرَ أَنْتَ! **] [أيوب ٤٠ : ٨]...**

فإن إلهى لا يدخل فى أىّ من أبواب منطقنا، ولا يخضع لأىّ من مقاييسنا...

[لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً؟ **] [رومية ١١: ٣٤]...**

هكذا هو إلهى:

عجيب، رائع، فريد من نوعه، مذهل محيّر...

إنه الوجود والحركة...

إنه ما كان وما سيكون...

إنه كلّ شئ، هو ما هو...

إلهى المحيّر تؤمن به ولا تراه...

تحبّه ولا تلمسه...

ترجوه ولا تسمعه...

تملكه ولا تستحقه...

[أَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ اَلْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ **] [رومية ١١: ٣٦]..**

من تُراه سعيدًا حقًا؟

إنْ كان الله موجودًا، فينبغى أن يكون السعادة بالذات...

لا أحد يمارى فى ذلك، كما أنه لا أحد يتجاسر وينفى أن المسيحية هى دعوة إلى السعادة...

إلا أن الألم ما زال سرًّا عويصًا لا جواب عنه فى هذه الدنيا...

وقد عرض المسيحيون حلاً هو فى نظرهم الحل الوحيد المعقول، قوامه رجاء قيامة الأجساد...

[لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لاَ يَقُومُونَ فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ.

وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ فَبَاطِلٌ إِيمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ!

إِذاً الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضاً هَلَكُوا!

إِنْ كَانَ لَنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فَقَطْ رَجَاءٌ فِي الْمَسِيحِ فَإِنَّنَا أَشْقَى جَمِيعِ النَّاس.

وَلَكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ.

فَإِنَّهُ إِذِ الْمَوْتُ بِإِنْسَانٍ بِإِنْسَانٍ أَيْضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ.

لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ] **[١ كورونثوس ١٥: ١٦ - ٢٢]...**

[حَتَّى إِذَا تَبَرَّرْنَا بِنِعْمَتِهِ نَصِيرُ وَرَثَةً حَسَبَ رَجَاءِ اَلْحَيَاةِ اَلأَبَدِيَّةِ] **[تيطس ٣: ٧]...**

ولكن حذارِ الالتباس!!...

فلا المسيح ولا الكنيسة علّما قط أن للمسيحى عالمين منفصلين، أحدهما فى هذه الدنيا، " وادى الدموع"، والثانى فى الآخرة" سعادة أبدية"...

فقد أعلن المسيح أن " ملكوت الله هو الآن فى وسطكم"...

والله يعيش بين البشر، والبشر يعيشون فى الله...

[اُثْبُتُوا فِيَّ وَأَنَا فِيكُمْ. كَمَا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَأْتِيَ بِثَمَرٍ مِنْ ذَاتِهِ إِنْ لَمْ يَثْبُتْ فِي اَلْكَرْمَةِ كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِنْ لَمْ تَثْبُتُوا فِيَّ] **[يوحنا ١٥: ٤]...**

[إِنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ. وَمَنْ يَثْبُتْ فِي الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّهُ يَثْبُتُ فِي اللهِ، وَاللهُ يَثْبُتُ فِيهِ] **[١ يوحنا ٤: ١٦]...**

فينبغى أن تبدأ السعدة هنا فى الأرض، سعادة الجسد والروح، أى سعادة الإنسان بكلّيته، سعادة قد لا تكون شاملة مطلقة، إنما بوسعها أن تكون عظيمة ...

وفى كل سعادة تأخذ بنا جسدا وروحًا، ودمًا وفكرًا وضميرًا، تهبّ نسمة الله فتبعث الشوق إلى الأبدية وتُفتّقُ فيه التوق إلى السعادة الحقيقية التامة...

لذا فإن كان من المألوف القول بأن الألم يقرّب الإنسان من الله ويقدسه، فليس من مانع أن نقرّ ايضًا بأن السعادة تستطيع الصعود بنا إلى الله...

كما أنه بوسعها تقديسنا بنار الحنين المتولدة من كل هبّة سعادة، والنازعة بنا إلى ما هو أبدى...

أجل، فمن الأكيد أن السعادة فى نظر المسيحى ليست شيئًا بقدر ما هى شخص...

للسعادة وجه واضح المعالم لأنها الله بالذات...

بيد أن الكتاب المقدس يقول:" ما من أحد يستطيع ان يرى الله دون أن يموت"، مما قد يدفع بالمعترضين أن يقولوا بأنه ما من سعادة ممكنة فى هذه الدنيا...

كيف لا وأنه من المستحيل على الضرير أن يتبيّن الألوان وينعم بمشاهدة الرسوم؟...

كيف لا وأنه ليستحيل على الأصم أن يتذوق الموسيقى؟...

فقد تكون سعادتنا سعادة للمستقبل فقط...

إلا أن الأمور على خلاف ذلك، والمسيحيون لا يتخلون عن اعتقادهم بإمكانية وصولهم على السعادة فى هذه الدنيا ومنذ الآن...

وقد بدأتُ افهم هذه الحقيقة لمّا كنت لا أزال طفلاً فرووا لى الحادثة الآتية:

" أنجبت امرأة فقيرة، عمياء وخرساء، ولدًا كان أعمى هو أيضًا...

وقد أصيبت فى ما بعد بمرض أشرفت معه على الموت، فأبعد وليدها عنها...

وتطورت الأمور بحيث لم يقيّض لهما أن يلتقيا لقاء آخر طوال عشر سنوات...

وكانوا يكلمون الصبى عن أمه ولكنه لم يكن يفهم هذا الكلام...

وإن هم وصفوها له على قدر ما كان يتيسرلهم، كان هو يجهش بالبكاء لأنه كان يريد أن يراها"...

" وفى ذات يوم، لطفت الظروف بحياتهما القاسية، فالتقت الأم وولدها...

وإذا بها تضمّه إلى قلبها بشوق وتقبّله بلهفة وتبكى معه حتى قالت الممرضة التى شاهدت هذا اللقاء:" لم يعودا إلا جسدًا واحدًا قد استحال سعادة"...

لم يعد الولد بحاجة إلى من يصف له أمه، رغم أنه كان لايزال يبغى مشاهدتها، والغوص فى نور عينيها، وتبيُّن ماهية هذه العبرات التى بللت وجهه ويديه، وسالت على عنقه دافئة تداعب سعادته المستجدّة...

لقد اكتشف هذا الوليد أمه من خلال المحبّة...

وإن كان الله محبة، فباستطاعة الإنسان أن ينعم بالحياة فى حضرة الله من خلال المحبة...

لذا نرى أن من ذاق السعادة ولو مرة واحدة، يدرك أن الله موجود، حتى ولو أطلق عليه اسمًا آخر...

وربّ قائل يقول: ومن هو بالحقيقة سعيد؟..

هل الذين يفتخرون بسعادتهم هم سعداء؟...

هل الذين يبكون هم تعساء؟...

إن أنسَ لا أنسى مدى تأثير تطويبات المسيح التى سمعتها أوّل مرة بشئ من الادراك...

[طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.

طُوبَى لِلْحَزَانَى لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ.

طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ.

طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ إِلَى الْبِرِّ لأَنَّهُمْ يُشْبَعُونَ.

طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ.

طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ.

طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ يُدْعَوْنَ.

طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.

طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ مِنْ أَجْلِي كَاذِبِينَ.

إِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُمْ هَكَذَا طَرَدُوا الأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ **] [متى ٥: ٤ - ١٠]...**

فتساءلت ساعتئذ كيف التوفيق بين الفقر والسعادة، بين الدموع والابتهاج، بين الاضطهاد والاغتباط، بين الطهارة واللذة، بين الوداعة والقدرة، بين الجوع والشبع؟... وأذكر أننى طالعت بنهم كتاب الحياة، ودفعت بفضول أبواب بيوت الناس، علّنى أقف فى بعض الأماكن على حقيقة هذه المفارقة العجيبة الشائقة...

بيد أن الحقيقة القاسية بدت وكأنها تهزأ من سذاجتى...

فقد رأيت الأغنياء ينعمون فيما الفقراء يرتجفون، والودعاء يداسون فيما أنصار العنف يستظهرون، والمضطهَدون يُهشَّمون فيما المضطهِدون يُبخَّرون، والأطهار القلوب فى خمول بينهما الماجنون فى زخم من الحياة...

ولطالما تردّد فى أذنى صوت أحدهم وأثار فىّ التساؤل ممزوجًا بالأسى والخوف، إذ قال لى مرة:" سيزول النبى الناصرى من تلقاء نفسه، يوم يدرك الفقراء أن مبعث سعادتهم

هو الغنى، والأتقياء القلوب أن السماء " تبعث على الضجر" فيما جهنم هى " مثيرة"، والساعون إلى السلام أن نشوة المجد والقوة لا تكون إلا من نصيب من يزاحم بالمنكب والساق، ويوقع مزاحميه فى الحفرة"...

فمن هم السعداء ياتُرى؟...

وإذا بالحياة تعلمنى شيئًا فشيئًا أنّ ما كل بيضاء شحمة، ولا كلّ برّاقة جوهرة، ولا كلّ دمعة مُرّة...

وأن السعادة الحقيقية متعددة الوجوه، وأن بعض الثوانى من السعادة " العميقة" قد تفوق بكثير سنوات من الرفاهية " السطحية"...

فها إن صحافة اليوم تكشف لنا أن الانتحارات تزداد حيث تزول الحاجات، وحيثما يكثر المال يتكاثر الجنون، وأن الذين لا يبكون شيئًا ما، بنتابهم الضجر، وأن الأمور الجنسية بدأت تبعث الاشمئزاز حيثما عاثت بالأمس فسادًا، وأن الناس أصبحوا بحاجة إلى تعلّم ما لم يفكّر أحد بتعليمه حتى الآن، ألا وهو الحبّ...

فلنتساءل بإخلاص وشجاعة من هو الأعلم بالسعادة؟...

ومن هو الأقدر على إدراك المحبّة؟...

هل هى تلك الوالدة الثرية، التى يلم ينقصها شئ من متاع الدنيا، وكانت مع ذلك تشكو من الضجر لأن ابنتها الوحيدة كانت تبقى لتتناول الغذاء فى مدرستها (وهى أرفع معاهد العاصمة الأسبانية مستوى) وبذلك لم يكن بوسعها أن تشاهدها " قبل السادسة مساءً"...

أم هو العازف الأسبانى، الذى كان يعمل فى إحدى ضواحى روما، بعد أن اضطر إلى ترك ولديه فى مدرسة داخلية وضيعة فى مدريد، وقد قال لى:" أمضيت عشرًا من سنين حياتى لا يغمض لى جفن فى الليل، أركض بلا انقطاع من مقصف إلى مقصف. وأصعب ما كان ذلك فى الشتاء، حيث كنت أعود إلى منزلى عند الفجر بعد مسير ساعتتين على قدمىّ، بيد أنه لو كان لك أولاد لفهمت ما يخالجنى من سعادة وأنا أفكر بأننى سأعانقهم عما قليل بعد مضى عشرة أعوام. لم أتخيل ما سيكون فرح أولادى بملاقاة والدهم، تصبح هذه السنوات العشر القاسية المضنية أخف عبئًا من النسيم"..

هل هو ذلك الصناعى الغنى الذى كان أولاده يتثاءبون ضجرًا أمام ألعابهم الجميلة يوم الأحد فى بيتهم...

وإلى جانبهم تقطّع أمهم الوقت بلعب الورق رغم أموالها المتكدسة فى مصارف مدريد، فى حين كان يوقف سيارته الضخمة فى أحد الشوارع يستمد الشهوة بجشع من بنات الهوى"...

أم هو ذاك الشرطى المحدود الدخل، وقد وجدته فى بعض أيام الآحاد جالسًا على الأرض يلعب بالكِلَل مع أطفاله الثلاثة، فقال لى:" قد يهزأ منى الكثيرون إن قلت لهم إنى سعيد كل السعادة هنا الآن مع أطفالى، إنه الوقت الوحيد الذى أستطيع فيه، طوال الأسبوع، البقاء معهم والاستفادة منهم لو أردت خوض المغامرات خارج المنزل لما صعب علىّ ذلك إلا أن إسعاد أولادى خير ما يسعدنى"؟...

هل هو ذلك الوجيه فى قرية " ك"، الذى وقف على باب منزله يرقب، وروح التشفّى بادية على محياه، مجئ سيارة الوالى وقد أتى هو نفسه ليقتصّ من موظف برئ وشى به، على غير حق، هذا الوجيه وبعض المتواطئين معه، بعد أن رفعوا التقارير ممهورة بالتوقيعات المزورة"...

هل هو "..." الذى أضحى الآن مديرًا لأحد المصانع الكبرى، بعد أن درس على حساب والده ولم يُعْدَم كل سنة عطلة صيفية تدوم ثلاثة أشهر، كما أنه لم ينقصه لا الوقت ولا المال ليذهب مع خطيبته إلى السينما كل مساء...

هل هو ابن الأستاذ "..."، الذى أطلق العنان لفرحه لأن أباه خرج من المحكمة " بريئًا"، بسبب صداقته مع وزير العدل...

أم هو ذلك الشاب الإيطالى الذى شاهد أباه يُحْكَم عليه زورًا بالأشغال الشاقة، فجاهد طوال عشرين عامًا لإثبات براءة والده، ولما انتهى إلى ما طالما ابتغاه، عانق أباه على باب السجن وهتف وهو يكاد يختنق فرحًا:" نحن نسامح كل إساءة، فحسبنا هذه السعادة العظيمة؟"...

أهو المسيحى الخامل الذى يظن أنه سعيد فى طمأنينة إيمانه الدافئ " المُبَرْجَز"، إيمان لا يُلْزمَه قيد أنملة ولا يقوى على بث الحماسة فى نفسه أو إحلال التغيير فى قلبه...

أم هو ذاك المستخدم الشاب فى أحد الفنادق، الذى فقد إيمانه وتألم لفقدانه، ثم عاد فوجده ثانية وهو يستمع إلى محاضرة دار فيها الحديث حول ملاقاة المرء بخالقه فى أعماق الضمير، وأرد أن يشكر الله على هذه الملاقاة ويبادله العطاء، فذهب متطوعًا بكل سخاء، ليخدم فى إحدى أفقر الإرساليات الإفريقية وساعد فيها معلّمى الديانة للمحليين...

تلك بعض أنواع السعادة مررنا بها، وأنا أدرى كل الدراية أيها أختار لى، ولا شك أنكم أنتم أيضًا تدرون ما تختارون منها لكم...

وأعلم أيضًا أيًّا من هذه الأبواب أقرع إن حاولت اكتشاف السعادة الحق...

وإن حاولت أن أحدد من هم الأناس السعداء الذين يستطيعون تلمّس إله المسيحيين...

سوف تظل آلام الإنسان سرًّا عويصًا...

وكذا القول عن فقره وقلقله وعزلته ودموعه...

فيما يشعر من نفسه بالتوق المؤلم الدائم إلى السعادة..

بيد أننا نستشف بصيصًا من النور فى هذا الميدان عندما نلاحظ أن أسمى درجات السعادة وأشدها أصالة وأقربها إلى صفات الأزلية إنما تنبثق من ظلال الآلام الفسيحة...

[فَرَجَاؤُنَا مِنْ أَجْلِكُمْ ثَابِتٌ. عَالِمِينَ أَنَّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ شُرَكَاءُ فِي الآلاَم، كَذَلِكَ فِي التَّعْزِيَةِ أَيْضاً **] [٢ كورونثوس ١: ٧]...**

ولا يخطرن ببال أحد أن يسئ فهم هذه الأفكار بدافع من الشفقة...

إن قلنا بأن السعادة التى يشعر بها الفقراء والباكون والودعاء والبسطاء هى من العمق العجيب بحيث نلمس فيها الله...

فهذا لا يعنى أى تبرير أو قبول للفقر الظالم...

ولا يجعلنا نشيح بوجوهنا عن دموع الآخرين...

وإن فعلنا ذلك لكنا من المجدفين...

فقد قال المسيح:

[لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ **] [متى ٢٦: ١١]...**

ولكنه أردف:

[وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ **] [لوقا ٦: ٢٤]...**

ولقد قال أيضًا:

[طُوبَى لِلْحَزَانَى لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ **] [متى ٥: ٤]...**

ولكنه بذل حياته ليستطيع الناس الوصول إلى السعادة التى لا حد لها ...

فما أردت قوله هو أنه لا بدّ لنا، نحن الميسورين المتنعمين، من الإقرار بأن من ندعوهم " تعساء" ومن نبقيهم فى الفقر والدموع، يجسدون مفارقة راهنة، إذ انهم يملكون مفاتيح سعادة حقّ لا تخطر دومًا على بالنا نحن المتكبرين...

[ثُمَّ يَقُولُ أَيْضاً لِلَّذِينَ عَنِ الْيَسَارِ: اِذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ

لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي.

كُنْتُ غَرِيباً فَلَمْ تَأْوُونِي. عُرْيَاناً فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضاً وَمَحْبُوساً فَلَمْ تَزُورُونِي.

حِينَئِذٍ يُجِيبُونَهُ هُمْ أَيْضاً: يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَوْ عَطْشَانَاً أَوْ غَرِيباً أَوْ عُرْيَاناً أَوْ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟

فَيُجِيبُهُمْ: اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا] **[متى ٢٥: ٤١ - ٤٥]...**

فإن فهمَ أحد هذه الصفحات على خلاف ذلك...

فليرمها فى النار ولتحترق فيها لتوها...

[مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ **] [متى ١٣: ٩، ١٣: ٤٣، مرقس ٤: ٩، ٢٣، ٧: ١٦، لوقا: ٨: ٨، ١٤: ٣٥]...**

إلهى مختلف

إلهى هو كلّ ما يُمْكِن الإنسان أن يحبّه...

ولكنه أيضًا، وخاصة، هذا " المكان الآخر" الذى يحلم به الإنسان...

إنه كلّ ما لم يحصل عليه الإنسان بعد...

إنه كلّ ما يحاول الوصول إليه...

إلهى هو هذا الشئ الذى يعلم الإنسان أنه ممكن الوجود وأنه يختلف عن كل شئ...

إلهى هو لكلّ إنسان القدرة على التعجب...

المرء أحبّ للأمور المادية، قبل امتلاكها، منه بعد الحصول عليها، أما إلهى فإنك أقل حبًا له قبل التعرف إليه، منك بعد ملاقاته...

إلهى يجتذب الإنسان لما يدرك المرء بقلبه، بعد طويل البحث والتلمّس والتدقيق، أن الله يختلف ويتجدد، يلمس حدود الأشياء باستمرار، دون أن ينال منه التغصن أو الذبول، ولمّا يدرك المرء أن " الكلّ" يكمن فى الأعماق...

عندما يلمس الإنسان حدود الأشياء وينتهى إلى التخوم التى طالما حلم يها، يبدأ لتوّه بالتشوّق إلى ما هو " مختلف"...

وذلك فى جميع الميادين، التقنية منها والعلمية والفنية والسياسية والإنسانية...

هذا الأمر " المختلف" الذى يبحث عنه الإنسان على شواطئ امتلاك الأشياء، هذا " الأكثر" ، هذا " المكان الآخر" ، هذا " الجديد" ...

إنما هو إلهى...

إلهى الكامن، وكأنه الشوق الصامت إلى اللامتناهى، فى أعماق طيات النفس البشرية...
إلهى يبدأ حيث يقول الإنسان:" كنت أظن أن الأمور ستكون على خلاف ذلك"...
الإنسان يطلق العنان لأحلامه، ويناضل، ويعمل، ويخطئ، للوصول إلى مركز، أو وظيفة، أو اكتشاف، أو حب، أو حساب فى المصرف، وما أن يذوق طعم النصر حتى يبدأ يسأم منه، فيتقلّص ويذبل وينطفئ، وتعود عجلة الشوق تدور فى قلبه وتدور...
وإلهى لا يزال من وراء كل خيبة أمل يُمنى بها الإنسان، فكأنه صوت يردد له:
" أنت بحاجة إلى ما يتغيّر دومًا، إلى ما يتجدّد دومًا، فلا يدعك تشعر قط بأنك صغير حقير"...
[تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَال وَأَنَا أُرِيحُكُمْ **] [متى ١١: ٢٨]...**
ألا يكون ذلك ما قاله المسيح للسامرية على حافة البئر...
فإن إلهى ليس ماء يشفى غليل الإنسان، ذاك البحاثة الدائم عن المزيد، بل ينبوع حىّ لا ينضب، يتجدّد ماؤه دومًا ويستطيع إرواء عطش سيظل يلازم الإنسان أبد الدهر...
لأن الإنسان بوصفه خليقة...
سيظلّ يعطش إلى المزيد...
حتى النهاية وأبد الدهور...
ذلك بأن إلهى اللامتناهى لن يدخل أبدًا بكلّيته فى قلب الإنسان وعقله...
إلا أن إلهى ينبوع بوسعه أن يروى العطش المتجدّد فى كل لحظة من لحظات حياة البشر...
فعندما يُدنِى الإنسان شفتيه من معين الله...
لا يقول :" ذلك حسبى"...
بل إنه يهتف:" هذا الينبوع عجيب لا ينضب"...
وإذا به يسعى إلى المزيد من العطش ليظل يرشف من ماء لن يرويه بالتمام، بل يسعده فى كل مرة...
[وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ **] [يوحنا ٤: ١٤]...**
[قَدْ تَمَّ! أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّاناً **] [رؤيا ٢١: ٦]...**

إلهى هو هذا الشئ " المختلف" الذى سيظل المرء بحاجة إليه ليشعر بأنه " شبيه بالله"...

إلا أن إلهى مختلف، إلهى المتجدّد دومًا، إلهى الذى لا ينضب معينه، ليس من السهل مراسه، ليس بالسهل لمن يقنع بجرعة ماء واحدة، ولمن لا يرى أن الله يختلف عن الأشياء...

إلهى الذى لا يُسبْر غوره...

إلهى الذى لا يطاله مقياس...

إلهى اللامحدود...

ليس بالسهل لمن لم يشعر بعد، على غرار السامرية، يلهب وجوده " الفريد، المختلف"...

[لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً **] [يوحنا ٤: ١٠]...**

المسيح لا يلجأ إلى القدرة

الله قدير، كلّى القدرة، وكان بوسعه أن يفتتح دخوله إلى العالم بعمل يُظهر فيه قدرته وسلطانه وسطوته...

كان المرء، بعد السقطة، فى الهاوية...

كان قد فقد حقوقه كلها، لا يقوى على الخلاص بمفرده...

وكان بوسع الله أن يلجأ إلى قدرته ليرغمه على أمر هو بطبيعة الحال جيد، ألا وهو أن " يخلّص نفسه"...

إلا أن الله رفض تحقيق خلاص البشر عن طريق القدرة...

فكان أول الشروط لدخوله التاريخ الإنسانى أن تلبى مريم دعوته:" فليكن لى كما قلت"...

[هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ **] [لوقا ١: ٣٨]...**

الابن الكلمة المتجسد يعمل مشيئة الآب ويبادر إلى افتداء شعبه...

[لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ اَلسَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ اَلَّذِي أَرْسَلَنِي.

وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ اَلَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمُهُ فِي اَلْيَوْمِ الأَخِيرِ.

لأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ اَلَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الاِبْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي اَلْيَوْمِ الأَخِيرِ] [**يوحنا ٦: ٣٨- ٤٠]...**

فهو إله، وهو قدير - هو القدرة ذاتها - ومع ذلك فإنه " يتخذ صورة عبد" على حد قول بولس الرسول...

[اَلَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اَللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ.

لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ اَلنَّاسِ

وَإِذْ وُجِدَ فِي اَلْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى اَلْمَوْتَ مَوْتَ اَلصَّلِيبِ] [**فيليبى ٢: ٦، ٧]...**

وهنا يكمن ما يُدخله الله من تغيير عميق فى مفهوم البشر للقدرة...

ففى نظر الوثنيين كان المسيح حجر عثرة، ولم يفهموا قط أن يتجرّد القدير عن قدرته ويظهر أمام الناس ضعيفًا، مكبلاً، مضطهدًا، مصلوبًا...

[فَوَلَدَتِ اِبْنَهَا اَلْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي اَلْمِذْوَدِ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي اَلْمَنْزِلِ] [**لوقا ٢: ٧]...**

ومع ذلك فإن يسوع الطفل الصغير، الضعيف، الفقير، العبد، هو " الكلّى القدرة"...

فعند ولادته بشر الملاك الرعاة قائلاً:

[فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ اَلشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ اَلْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ اَلْمَسِيحُ اَلرَّبُّ] [**لوقا ٢: ١٠، ١١]...**

وسبحه السمائيين قائلين:

[اَلْمَجْدُ لِلَّهِ فِي اَلأَعَالِي وَعَلَى اَلأَرْضِ اَلسَّلاَمُ وَبِالنَّاسِ اَلْمَسَرَّةُ] [**لوقا ٢: ١٤]...**

ومع ذلك قال يسوع لليهود:

[لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ] [**متى ٨: ٢٠، لوقا ٩: ٥٨]...**

إلا أن قوته لا تمتّ بصلة إلى قوة جبابرة هذه الدنيا...

فسلطته وحماية الآب له تنبعان من رفضه القوة كأداة للقهر...

كان بوسعه القضاء على هيرودس لما شرع هذا الطاغية بملاحقته فى صميم مهده...

ولكنه لم يلجأ إلى سلطانه على الحياة...

فكان الآب نفسه يدافع عنه...

[مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ] [**متى ٢: ١٣]...**

ولما كان يبدو فقيرًا أعزل فى وجه الظالم، كان فى الحقيقة أقوى منه...

سلطان المسيح مرده إلى وحدته مع الآب:

[اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ **] [يوحنا ١٤: ٩]...**

ويتمتّع يسوع بالسلطان لأنه ينطق باسم الآب...

ويتكلّم فى صميم الضمير حيث الملاقاة بين المرء وخالقه...

وهذا ما حدا بالجماهير على أن تقول:

[فَبُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لهُ سُلْطَانٌ **] [مرقس ١: ٢٢]...**

إلا أنه لم يكن يفرض سلطانه، ناهيك عن قدرته...

بل كان يفرض نفسه فرضًا تلقائيًا، بفضل قوة كلامه الجذاب، وحباته، وحكمته، وتنبؤاته، وآباته العجيبة...

[وَلَمَّا وَجَدُوهُ قَالُوا لهُ: إِنَّ اَلْجَمِيعَ يَطْلُبُونَكَ **] [مرقس ١: ٣٨]...**

فلمّا خلّص الزانية لم يلجأ إلى القدرة، بل إلى قوة اتهامه المعنوية وحكمه الصارم فى الرياء، مما أفحم أعداءه ومزّق أقنعتهم أمام الجماهير...

[وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْض ..... اِنْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!**] [يوحنا ٨: ٤] ...**

ولم يلجأ قط إلى القدرة فى المجال الزمنى، إذ قال:

[أَعْطُوا إِذاً مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ **] [متى ٢٢: ٢١، مرقس ١٢: ١٧، لوقا ٢٠: ٢٥]...**

وإن هو لجأ بعض الأحيان إلى قدرته الفائقة الطبيعة، فما كان ذلك إلا لخدمة لمن توسّل إليه:

[وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لاِبْنِ اَلإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى اَلأَرْض أَنْ يَغْفِرَ اَلْخَطَايَا ـ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: لَكَ أَقُولُ قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ **] [مرقس ٢: ٩، ١٠]...**

وإن هو استعمل القدرة بشكل مباشر، فلم يكن ذلك إلا لمقاومة الشياطين...

[إِذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! **] [متى ٤: ١٠]...**

فهو يحترم دومًا حرية الإنسان...

[أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟ **] [يوحنا ٥: ٦]...**

ويكتفى بإيقاظ ضميره ونزع القناع الذى يتلبس فيه مرائيًا...

فيبيّن له مغبة الهلاك ويدعوه على مراتع الكمال...

[هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فَلاَ تُخْطِئْ أَيْضاً لِئَلَّا يَكُونَ لَكَ أَشَرّ **] [يوحنا ٥: ١٤]...**

القدرة التى لجأ إليها الله مع الناس بعد أن أغلقوا دونهم أبواب الخلاص، هى أنه أرسل ابنه " ليفتدى" الجميع...

[اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ - الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ] **[عبرانيين ١: ١، ٢]...**

هذه القدوة هى وما عهدناه وما فهمناه فى ذلك الشأن على طرفى نقيض...

فبدل أن يفرض الله على البشر التكفير عن خطاياهم...

وبد أن يضطرهم إلى الصعود على الصليب لتُمحى بذلك خطيئتهم...

قدّم ابنه...

المولود من بين البشر، والمنحط إلى دركات العبودية...

ليبين للعالم أن طريقته الوحيدة فى " التسلّط" و" فرض قدرته" هى الحب السخى...

الحب الذى يحمل على منكبيه خطيئة البشر...

وليبين أن الطريقة الوحيدة أمام من يريد إعتاق العبيد هى أن يصبح هو نفسه عبدًا للآخرين...

[لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ] **[يوحنا ٣: ١٦]...**

[الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِ خَطَايَانَا، لِيُنْقِذَنَا مِنَ الْعَالَمِ الْحَاضِرِ الشِّرِّيرِ حَسَبَ إِرَادَةِ اللهِ وَأَبِينَا] **[غلاطية ١: ٤]...**

[اَلَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لأَجْلِ الْجَمِيعِ، الشَّهَادَةُ فِي أَوْقَاتِهَا الْخَاصَّةِ] **[١ تيموثاوس ٢: ٦]...**

[اَلَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا، لِكَيْ يَفْدِيَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَيُطَهِّرَ لِنَفْسِهِ شَعْباً خَاصّاً غَيُوراً فِي أَعْمَالٍ حَسَنَةٍ] **[تيطس ٢: ١٤]...**

ونلج إذ ذاك حيّز نظام جديد للسلطان، أساسه ديناميكية المحبّة، وقيمته أن يبذل فيه المرء ذاته...

إنه السلطان الوحيد الذى يفرض السلطة المعنوية القادرة على الوصول إلى أعماق الضمير...

لمّا كنت أدرس اللاهوت فى الجامعة، قرأت ذات صباح نبأ فى الجريدة، كان لى على أثره من الادراك لهذه المسألة ما لم أنله بعد أسابيع طويلة من الدراسة فى الكتب...

وكان هذا النبأ مروعًا، إلا أن مغزاه اللاهوتى عميق...

ومفاده أنه كان أحد الأطفال، لمّا يتجاوز الثالثة من عمره، يلعب الكرة إلى جانب الطريق فى إحدى ضواحى روما، وكانت أمه قريبة منه...

وإذا بالكرة قد اندفعت نحو الجادة، فجرى الطفل فى أثرها، وما هى إلا ثانية حتى أطلت شاحنة على أقصى ما تكون من السرعة...

فشرعت الأم تصرخ وتتوسل إلى ابنها ليهرب ولكن الصبى لم يكن ليبالى، فبقى فى وسط الطريق...

عندئذ تخلت الأم عن كل تفكير فقدمت حياتها لتخلص ابنها، فرمت بنفسها أمام الشاحنة، ودفعت بالصبى إلى جانب الطريق، ولقيت مصرعها تحت عجلات العربة...

آخر فعل سلطان قامت به هذه الأم تجاه ولدها، كان تقديمها له حياتها بالذات لتكون له الحياة...

ولطالما تساءلت بعد ذلك: تُرى أى سلطة معنوية كان قيّض لهذه الأم على ابنها، لو قُدّر لها أن تنجو من الحادث؟...

لأن الذى يأمر أو يدعو أو يسأل وهو يبدأ فيعرّض نفسه لخطر، إنما يُلزم الضمير إلى أبعد الحدود...

لمّا دخل الله فى تاريخ الإنسانية التى أغلقت دونها أبواب الحياة...

لم يمارس سلطانه وهو جالس على العرش...

بلّ وهو فى مذود بيت لحم وعلى خشبة الصليب فى أورشليم...

الله قادر على اقتحام حصوننا ولكنه لا يفعل...

أما نحن، غير القادرين على ذلك، فإننا غالبًا ما نقتحم حِمى القريب...

كان بوسع المسيح أن يرشق يهوذا بالحرم ويقصيه عن جماعة الرسل...

لكنه قال له:

[مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ **] [يوحنا ١٣: ٢٧]...**

ولكنه أبقاه إلى جانبه حتى القُبلة الأخيرة، قبلة الخيانة...

[فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: يَا يَهُوذَا أَبِقُبْلَةٍ تُسَلِّمُ ابْنَ الإِنْسَانِ؟ **] [لوقا ٢٢: ٤٨]...**

كان باستطاعة المسيح أن يفرض على رسله تحت طائلة الخطيئة، بعض الشرائع...

لكنه آثر تحريرهم من شكليات الشرائع والعوائد الراهنة...

مما جعل الناس يتعثرون لأن التلاميذ قطعوا السنابل يوم السبت، ولم يصوموا على غرار تلاميذ المعمدان...

[ثُمَّ قَالَ لَهُمُ : السَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ **] [مرقس ٢: ٢٧]...**

لم يفرض المسيح على تلاميذه حتى على الصلاة...

ولكنه هم الذين سألوه، بعد أن رأوه يصلى:

[وَإِذْ كَانَ يُصَلِّي فِي مَوْضِعٍ لَمَّا فَرَغَ قَالَ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: يَا رَبُّ عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ كَمَا عَلَّمَ يُوحَنَّا أَيْضاً تَلاَمِيذَهُ **] [لوقا ١١: ١]...**

المسيح يدفع ويقنع ويهدى...

إلا أنه لا يغصب على الإطلاق...

إنه لا يلجأ إلى قدرته...

المجال واسع لمن يريد سبر أغوار سر بيت لحم، سر مفاهيم السلطان الجديدة...

إذ يقف المرء أمام الإله القدير ينبوع القدرة والسلطان، وهو يقدّم ذاته لخلائقه ضعيفًا،

اعزل، احوج ما يكون إلى المأوى والحماية...

هيرودس هو القدرة، فيعيث ظلمًا وطغيانًا...

أمّا يسوع فهو الضعف، فيحمل العدل والمحبة...

هيرودس يبغى الدفاع عن ملكه فيلجأ إلى قدرته ليزرع الموت ويغتال الأبرياء...

أمّا يسوع فيحتمى من الموت بالاستسلام إلى أبيه فينجو من هيرودس...

[حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرّاً وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ.

ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَقَالَ: { اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضاً وَأَسْجُدَ لَهُ }.

ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ انْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ.

وَبَعْدَمَا انْصَرَفُوا إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ قَائِلاً: { قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ }.

وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: { مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي **} [متى ٢: ٧، ٨، ١٣- ١٥]...**

وفى آخر أيامه يسلم ذاته إلى الموت ليقدّم للعالم الحياة...

فيما يصلب بيلاطس مبدع الحياة، بل الحياة نفسها، لينجو بذاته...

[قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: خُذُوهُ أَنْتُمْ وَاصْلِبُوهُ لأَنِّي لَسْتُ أَجِدُ فِيهِ عِلَّةً **] [يوحنا ١٩: ٦]...**

المقتدرون فى العالم يلجأون إلى القوة للدفاع عن أنفسهم...

أما قدرة الله فتلجأ إلى الحب لخلاص الآخرين...

وما من قدرة لها السلطة المعنوية الحق على الضمائر، إلا تلك القدرة التى تستحيل تواضعًا...

وذل الغنى الذى يُضحّى فقرًا...

والحرية التى تغدو عبودية عن سابق إرادة...

تلكم هى السلطة الوحيدة التى بوسعها أن تقول:

[وَتَعَلَّمُوا مِنِّي لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ **] [متى ١١: ٢٩]...**

والوحيدة التى تقدر أن تعلن على رؤوس الملأ:

[أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي **] [يوحنا ١٤: ٦]...**

والوحيدة التى تتجاسر وتدعو: " تعال اتبعنى"...

ولئن كانت الكنيسة الامتداد الحى لبيت لحم، والمكملة لسر المسيح الشامل، فلا بدّ لقدرتها أن تكون شبيهة بقدرة المسيح، ولا يجوز أن تلجأ إليها على خلاف ما يلجأ إليها المسيح نفسه...

أضف على ذلك أن للكنيسة دوافع أخرى تحدوها على المثول أمام العالم بمظهر المسيح...

الذى لا يفرض إلا " خدمة الآخرين"...

الذى لا يعمد إلى الإكراه، ويؤثر التضحية وبذل الذات...

إن كانت الكنيسة تولد وتمثل أمام العالم بمعزل عن ضعف سيدها وعريه وفقره فى بيت لحم...

وتؤثر على ذلك المذود المذهّب الذى يُرضى كل من تخلّق بأخلاق هيرودس على وجه الأرض...

إن هى عدلت عن ممارسة سلطاتها من على الصليب فى التواضع، والبساطة، واحترام الحرية، والأصالة، والسيرة الحسنة، والقداسة...

فهى كنيسة تتنكر لما أرادها الله أن تكون، وسوف يؤول أمرها إلى سخرية الناس ولا مبالاتهم...

وكل ما قد تحظى من نصيب، يكون الخشية منها والتملّق لها، على نحو ما يحظى به المقتدرون فى هذه الدنيا...

ولن يعطى لها الدخول إلى محراب ضمائر البشر، ولن يعطى للبشر أن يعرفوا صوتها، ذلك الصوت الكامن فى أعماق قلوبهم، إلا إذا استطاعت أن تقابل تجبر المقتدرين وظلمهم ببذل الذات والثقة بالله الآب...

وأن تواجه الإكراه بروح الحرية والقبول المتواضع بالمجازفة فى سبيل الخير، وأن تحلّ، محل التسلّط والجاه، والتجرّد من التيجان والسعى المخلص لغسل أرجل البشر، كل البشرو حتى أعدائها والذين يخونونها ويتنكرون لها ويضطهدونها، على نحو ما فعل المسيح مع يهوذا...

وأن تخاطب العالم باسم الله، متذرّعة بكلام الله...

إذ ذاك فقط يحق بها القول: " إنها تتكلّم كمن له سلطان"...

وإذ ذاك فقط يطيعونها كما يريد الله أن يطاع، بالحب وبدافع الحب...

المسيح الطفل المولود من المرأة، المسيح الهارب فور ولادته، المسيح الطفل فى المنفى، تلك مواضيع للتأمل نحن أحوج ما نكون إليها فى هذه الأيام حيث المناقشات الحادة حول شؤون الدين، والانشقاقات فى الكنيسة، والتوتر بين الرؤساء والمرؤوسين...

نحن أحوج ما نكون إليها لتحديد موقفنا من الكنيسة بوصفها ذات قدرة، وبإزاء العالم الذى يناصبنا العداء ويرفضنا...

مرددين قول الرسول بولس:

[فَأطْلُبُ إِلَيْكُمْ، أَنَا الأَسِيرَ فِي الرَّبِّ، أَنْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلدَّعْوَةِ الَّتِي دُعِيتُمْ بِهَا.
بِكُلِّ تَوَاضُعٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَبِطُولِ أَنَاةٍ، مُحْتَمِلِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فِي الْمَحَبَّةِ.
مُجْتَهِدِينَ أَنْ تَحْفَظُوا وَحْدَانِيَّةَ الرُّوحِ بِرِبَاطِ السَّلاَمِ.
جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضاً فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ.
رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ،
إِلهٌ وَآبٌ وَاحِدٌ لِلْكُلِّ، الَّذِي عَلَى الْكُلِّ وَبِالْكُلِّ وَفِي كُلِّكُمْ **] [أفسس ٤: ١- ٦]...**

تمرّد المسيح

جرت الحادثة التالية إبّان المجمع الفاتيكانى الثانى...

كان أحد الكرادلة يلقى خطابًا والجميع يصغون إليه بإنتباه...

وإذا به يفجّر قنبلة، ويالها من قنبلة...

فقد قال، بلا زيادة أو نقصان:

{ أنه لو صرفت الكنيسة من الهَمّ، فى إعلان " تنديد المسيح بالأغنياء"، ما صرفته فى التنويه " بأولويّة بطرس"، لِمَ كان من داع قط لوجود الشيوعية }...

وإذا بالصحافة تتحدث فى الغد عن شجاعة هذا الكاردينال...

فهل كان ذلك لأن الخبر مثير؟...

لا، بل لأن الرأى العام العالمى وجد أن هذه الكلمات أقرب ما تكون إلى الحقيقة...

أسرّ يوحنا الثالث والعشرون فى أحد الأيام إلى صديق له حميم:

{ ما زال الإنجيل بحاجة إلى من يكتشفه }...

ولقد أقول بدورى أن نصفه، على أقل تقدير، لا يزال سرًّا مطبقًا على الناس...

وإنْ ذكرت النصف فلأن تلك الحقيقة العظيمة، التى هى الوحى، تظهر بمظهرين لم نُبرز منهما إلى حيّز النور إلا واحدًا...

فكلمة المسيح للإنسان هى مفارقة دائمة، ومناقضة مستمرة لا نقوى على حلّ رموزها...

لا شك فى أن المسيح يطلب أن :

[لاَ تُقَاوِمُوا اَلشَّرَّ بَلْ مَنْ لطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً **] [متى ٥: ٢٩]...**

ولكن لا مراء فى أنه يقول أيضًا وبصراحة بالغة:

[لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى اَلأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً **] [متى ١٠: ٣٤]...**

أجل، إننا نجد فى الإنجيل أساسًا لعلم لاهوت الطاعة والخضوع والاستسلام...

ولكن كتاب الله يعرض لنا أيضًا مادة ثمينة لصياغة نظريات لاهوتية للثورة والسخط والغضب والتمرّد...

ومن أمعن التفكير بعض الشئ، تبادر إلى ذهنه هذا السؤال:

لِمَ رُوعى جانب " الطاعة" إلى هذا الحدّ، لِمَ دُرس وسُلّطت عليه الأضواء، فى حين لم تبدأ القيم " الثورية" بلفت الانتباه فى اللاهوت والروحيات والرعائيات إلا خلال الآونة الأخيرة؟...

لِمَ، إذا كتبنا أو لفظنا كلمات " ثورة" و " غضب" و" سخط"، نشعر بضرورة إلحاقها بالنعوت الملينة، كأن نقول " نظيفة" أو " مقدس" أو " عادل"، وهى نعوت أشبه بالأوراق النشافة التى تمتص منها القوة والعنفوان؟...

وعلى العكس إن نحن تكلمنا عن " الطاعة"، نقتصر على الكلمة المجرّدة ولا نحتاج إلى نعوت؟...

فكما أننا لا نخشى أن نتكلّم عن " السخط المقدس" و " الغضب المقدس" و " الثورة العادلة"، فإنه ليجدر بنا أن نتكلّم عن " الطاعة الواعية" و " الطاعة المسؤولة" و " الطاعة المشروعة"...

زد على ذلك أننا إذا تحدّثنا عن " الثورة" لا ننظر إليها مجرّدة، لأننا نفكر فى أن الثورة وكل انتفاضة أو غضب لا يمكن أن تكون عادلة إلا ضمن حدود معينة، فيما إذا تكلمنا عن الطاعة، يخيّل إلينا أنه لا يجوز التلفّظ بالكلمة وحدها، فتزيد عليها النعوت ونقول: " الطاعة العمياء"، أى الطاعة التى تذهب إلى الحدود التى نراها اليوم " غير إنسانية"...

ومع ذلك فما من أحد يشك اليوم فى أن هنالك طاعة " مَرَضية" أو " كَسولة" أو " جبانة" أو " لا إنسانية" أو " غير عادلة"...

لِمَ كتبوا المصنفات التى لا تحصى حول ما جاء فى إنجيل متى:

[طُوبَى لِلمَسَاكِينِ بالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ **] [متى ٥: ٣]...**

فيما يكاد لا يوجد مؤلف واحد كامل عن " وعبد" القديس لوقا:

[وَلَكِنْ وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ **] [لوقا ٦: ٢٤] ؟؟؟...**

يخيّل إلىّ أنه من السهل الإجابة...

ويكفى لذلك القليل من الصدق...

فالوعظ، وتعليم الدين، وعلم اللاهوت، على السواء، تهبط من أعلى إلى أسفل بدلاً من العكس، وهى تنطلق من السلطة إلى الرعية، من الرئيس إلى المرؤوس، من الكنيسة المستتبة إلى كنيسة الفقراء، من النخبة إلى عامة الشعب، ولقد نتج عن هذا كله تضخّم فى لاهوت السلطة...

من ذلك أنه إذا ما أرادوا وصف " مسيح الغضب" أو " مسيح الثورة" أو " مسيح السخط" ، أعطوه ملامح المسيح" السيد"، " الرئيس" " المتسلّط"، الذى يحق له أن " يغضب" فى وجه رعيته ومرؤوسيه وتلاميذه...

بيد أن الحقيقة هى أن المسيح كان " الرئيس" و " المرؤوس"، و " السلطة" و " الطاعة" فى آن واحد...

كان يسوع " مرؤوسًا" اضطرته رغبته فى إطاعة الله أبيه دون قيد ولا شرط، إلى أن يواجه أكثر من مرة أناسًا جعلوا من أنفسهم رؤساء له...

فكانت سدل ستار من الظلام على ناحية هى من الحيوية بمكان فى بشارة المسيح...

وقصارى القول، إن هذه النتيجة كانت خيانة للإنجيل...

إخال أنه ينبغى لنا أن نتأمّل تأمّلاً مليًّا فى ما تنقله إلينا محطات التليفزيون من صور للآلاف المؤلفة من الصينيين وهم يتظاهرون فى الشوارع حاملين بأيديهم كتاب " ماو" الأحمر، مرددين الهتافات الثوروية، باحثين عن نُظُم وبُنى إنسانية يظنونها أعدل من الإمبريالية...

فهل خطر لنا وفكرنا أن استبدالهم الإنجيل بذاك الكتيّب الأحمر، وما يسدده من طعنة لإيماننا وحبنا للمسيح، قد يكون مردّه إلى أننا خصينا كلام الخلاص فهدرنا أو أقلّه حجبنا خير ما فيه من طاقة ثوروية؟...

من هنا محاولات البابا بولس السادس، التى قام بها لإقناع الصينيين بأن الإنجيل يحتوى على إعلان حقيقى للتحرّر، وأن حركتها الثوروية عناصر إيجابية لا تتنافى مع ما فى الإنجيل نفسه من قوى مشابهة...

لطالما فكّرت أن بعض تغاضينا وسكوتنا قد ينتج عن نوع من الحياء يشلّ فى كثير من المسيحيين كل حركة..

وإن أردنا ان نعلن بنزاهة واقتناع مضمون العظة على الجبل، فلا مفرّ لنا من أحد اثنين...

إمّا أن نكون قديسين...

وإمّا أن نكون مرائين...

فلا بد أن نكون فقراء حقًا، لا يكفينا أغنياء هذا العالم، إذ لايستطيع أن يهتف " طُوبَى لِلمَسَاكِين**" إلا من شعر فى لحمه بمهماز الفقر الأليم، و لايستطيع أن يرفع صوته ويقول "** وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا اَلأَغْنِيَاءُ **" إلا من كانت يداه منزهتين عن كل تواطؤ...**

ولا يجدر بأحد أن يعلن " طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ مِنْ أَجْلِي كَاذِبِينَ **"، ما لم تنطبع فى أعضائه جراحات الاضطهاد الذى قاساه للدفاع عن العدالة والبر...**

أمّا ما نراه فى الواقع، فإن الكنيسة { الكاثوليكية } لم تكن فقيرة بقدر ما كانت غنية... ولم تكن مضطهدة بقد ما كانوا يبخّرونها...

هذا ما دفعنا إلى بذل الجهود الجهيدة لإيجاد تفاسير مجازية أو لغوية لكلمات المسيح القاسية:

[إِنَّ مُرُورَ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اَللَّهِ] **[متى ١٩: ٢٤، مرقس ١٠: ٢٥، لوقا ١٨: ٢٥]...**

فإدعينا أن الإبرة إنما هى جسر رريخلو من ضيق، ولكنه يتيح مرور الجمل ولو ببعض الصعوبة...

وكل ذلك حلّ محلّ السعى لإقناع الأغنياء إقناعًا صادقًا شجاعًا بأنه لا رجاء لهم فى الخلاص إن لم يضعوا أموالهم، سواء كانت شرعية أو لم تكن، فى خدمة جماعتهم ومجتمعهم وإخوتهم...

لقد خجلت كما لم أخجل فى حياتى...

يوم أن ألقيت عظة عن التطويبات أضرمتها بكلّ ما فىّ من حرارة...

فجاءنى أحد العمال بعد خروجه من الكنيسة وقال لى:

" هل أنت تؤمن بما قلت؟"...

فأجبته بكل إخلاص:

" إخال إنى أؤمن"...

فأردف قائلاً:

" ولكن هل تعلم ما هو الفقر؟"...

فتأخرت فى الجواب...

وكان بوسعى أن أقول له أننى نذرت الفقر، ولكن منعنى الخجل، ولم أقوَ سوى على هذه الكلمات:

" لا شكّ أننى لست غنيـًا"...

فاستطرد قائلاً:

" إلا أن ذلك لا يكفى لتكون أحد هؤلاء الفقراء الحقيقيين الذين تكلمت عنهم... بالله سألتك، هل صدف لك أن فكرت بأنه قد يأتى عليك يوم لن يكون فيه ما تأكله؟، أو تأتى عليك ليلة قد لا تجد فيها ما تأوى إليه؟، أو يداهمك نهار قد تضطر فيه إلى أن تسأل من تجهله كل الجهل قميصًا رثـًا أو سروالاً مستعملاً؟، أو قد تجد نفسك فيه باطلاً عن العمل يحيط بك أطفال يعوزهم الخبز زليس من خبز، وينقصهم العلم ولا أمل لهم بالدراسة؟"...

ثم اختتم كلامه بهدوء لا يخلو من شدّة وكأنه نبى من الأنبياء، قال:

" فإمّا أنك لا تؤمن بما تقول عندما تعظ عن التطويبات، وإمّا أن الحياة يموجنها هى من الصعوبة بحيث لا تحسن تطبيقها رغم إيمانك بها، وفى هذه الحال يحسن بك أن تترك العظة عن التطويبات للفقراء الحقيقيين، وللمضطهدين الحقيقيين، أولئك الذين جفّت مآقيهم لكثرة ما استرسلوا فى البكاء"...

لم أرَ هذا العامل مرة ثانية...

بيد أنى لن أنساه أبدًا، كما أنن لن أنسى ما لقننى من بليغ العبرة...

وإن كان مفهومه للفقر مفهوم " سوسيولوجى" أكثر منه إنجيلى، إلا أنه يجدر بنا أن نتساءل أمامه:

" ألا ينبغى للفقر الإنجيلى الحق أن تتصل جذوره، على نحو أو آخر، بالفقر السوسيولوجى؟"...

ومن تلك الساعة وأن أحلم باليوم الذى فيه يبشّر بالإنجيل جمهور الفقراء الأقحاح، لا نحن الذين انتشوا بدخان البخور...

جمهور الذين كان دأبهم " الطاعة"، لا الذين كان دأبهم " إصدار الأوامر"...

إننى أحلم باليوم الذى يبشَّر فيه لا بالمسيح الطائع " الروح" فحسب...

بلّ أيضًا بالمسيح المتمرد على " الحرف" ...

مسيح لا يكتفى بإطاعة أبيه بل يرفض أكثر من مرة إطاعة البشر...

ما أقلّ ما وعظنا بالعمق عن الحادثة التى جرت للمسيح ورواها القديس لوقا فى الإصحاح الثالث عشر من إنجيله!..

لقد اقترب من يسوع نفر من الفريسيين جاؤوا باسم هيرودس وطلبوا إليه أن يكف عن اجتراح المعجزات ويرحل...

وكان هيرودس من أرباب السلطة وكان يسوع يبشر فى أورشليم...

فهل رضخ يسوع لسلطة هيرودس؟...

كلا، فإن المسيح لم يرفض فحسب، بل إنه أجاب بكل قوة الحق والإصرار على إكمال رسالته:

[فَقَالَ لَهُمُ: امْضُوا وَقُولُوا لِهَذَا الثَّعْلَبِ: هَا أَنَا أُخْرِجُ شَيَاطِينَ وَأَشْفِي الْيَوْمَ وَغَداً وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أُكَمَّلُ.

بَلْ يَنْبَغِي أَنْ أَسِيرَ الْيَوْمَ وَغَداً وَمَا يَلِيهِ لأَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَهْلِكَ نَبِيٌّ خَارِجاً عَنْ أُورُشَلِيمَ **] [لوقا ١٣: ٣٢، ٣٣]...**

فلنقلها بصراحة:

كيف يحكمون على كاهن أو علمانى يجاوب أحد أرباب السلطان مثل هذا الجواب؟...

إن هو رأى من واجب ضميره أن يقوم بمثل هذا العمل...

أقل ما يقال فيه إنه متمرّد سفيه...

أجل، ما زال الوجه الآخر من الإنجيل مجهولاً ينتظر من يكتشفه...

هذا الوجه الذى ينتظره الكثيرون من البشر ليقبلوا بمسيح طالما رأوه مشوّهًا فى مواعظنا...

أفلا ينبغى أن تزداد مشاركة الأسرة فى عملية التعليم ودراسة الإنجيل؟...

فلو زاد عدد الآباء والأمهات الذين يقومون بهذا العمل، مثلاً، لما عدمنا مفهومـاً صحيحًا للجنس وروحانية حقة للزواج...

نشاهد اليوم توترًا عظيمًا فى العالم أجمع بين الطلاب وأساتذتهم...

ولقد وصلت الأمور بالجميع إلى أن يطالبوا بثورة فعلية فى بُنى التعليم وأطره، وتمارس الضغوط للخروج من طرق التدريس الجامعى المبنى على مفاهيم المجتمع الرأسمالية...

وثمّة ناحية يلتقى عندها الجميع، حتى أكثرهم تمسكًا بالتقاليد، وهى أن فى التعليم كثيرًا مما بطل زمانه وكثيرًا مما يقتضى التغيير...

أفلا يمكننا أن نتساءل:

هل نحن بحاجة إلى ما يشبه ذلك فى مدارسنا الإكليريكية وفى تعليمنا الدينى؟...

أفلا ينبغى أن تزاد هنا ايضًا مشاركة " القاعدة" فى عملية التعليم؟...

لقد أقرّ ذلك المجمع الفاتيكانى الثانى، أو أقله شرّع له الأبواب، ولكن يُخيّل إلينا أن الأمور بقيت فى جوهرها دون كبير تغيير...

وفى الوقت نفسه نسمع من هنا ومن هناك أخبار أناس اخذوا يولون الكنيسة ظهورهم محتفظين بالإنجيل...

فمما لا شك فيه أن كل انفصال هو مأساة ومبعث للألم، لأن فى كل انفصال عنيف يُقطع بعض من الحقيقة، وغالبًا ما يكون هؤلاء الناس تواقين إلى العدالة...

أفلا يجدر بنا هنا أيضًا أن نتساءل:

هلا يريد الله استخدام هذه الانشقاقات الأليمة ليقهر كبرياءنا، فيسمح لهؤلاء بما يشبه اختلاس بعضًا من الإنجيل؟...

بعد أن أخذت منا الروح البرجوازية كل ماخذ فى المجالات المادية والروحية...

الحق يقال أن هذه الأمور غالبًا ما حصلت فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية...

وقد أقرّ بها المجمع الفاتيكانى الثانى...

كما ان بولس السادس لم يخف أن يطلب المغفرة عنها...

وكان ذلك بالنسبة إلينا مدعاة للتأمل وفحص الضمير الشاق...

ولنختم بقول يسوع:

[وَهُوَذَا آخِرُونَ يَكُونُونَ أَوَّلِينَ وَأَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ **] [لوقا ١٣: ٣٠]...**

<u>تعقيب:</u>

من الملاحظ أن الكاتب كاهن كاثوليكى وأنه ينوه عن المشاكل التى تتعرض لها الكنيسة الكاثوليكية من جهة دراسة الكتاب المقدس والانشقاقات الموجودة بسبب الجمود فى التعليم، والسلطة، والبرجوازية التى تعانى منها الكنيسة الكاثوليكية...

إلهى فقير

أجل، فقير هو إلهى...

إلهى، مسيحى، كان وديعًا متواضعًا :

[اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ اَلْقَلْبِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ **] [متى ١١: ٢٩]...**

لقد عمل بيديه...

ولم يكن له بيت يأويه:

[لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ **] [متى ٨: ٢٠، لوقا ٩: ٥٨]...**

لذا فإن إلهى حرّ...

لم يحبب ما يقيدنا: القدرة، والجاه، والغنى...

بلّ أحبّ ما يحرّرنا: الخير، والعتدالةو والرحمة، والطبيعة...

لقد أحب الآب...

إلهى فقير، ولذلك يحب الصغار، والبسطاء، والمنسيين، والضعفاء، والأطهار، والأقحاح...

إلهى ماء صافٍ، ماء الينابيع، ماء نقى...

فى عينيه النور، كلّ النور...

الشمس غنى الفقراء...

والنهار غنى من يعيش بعرق جبينه...

أمّا الليل فيستأثر به الأغنياء...

إلهى هو النور والشمس والنهار لأنه فقير...

إلهى ليس بالسهل...

إلهى الطاهر، إلهى الفقير، إلهى الحر، إلهى المحب...

لا يتساهل مع الإنسان المتعطش إلى كل ما يكبّله، الشغوف بالبوارق والزوائد...

إلهى لا يتساهل مع الإنسان العديم الإحساس الذى لا يتفاعل مع العشب النضير...

كثر الذين يتصورون الله من الأغنياء...

فيثقلون كنائسهم وأيقوناتهم بالذهب...

ويُلبسون قساوستهم الحرير...

ويفسحون المجال وينزعون قبعاتهم ويركعون عند الضرورة أمام من فاقهم سلطانًا أو تقدمهم شوطًا فى الغنى...

[يَا إِخْوَتِي، لاَ يَكُنْ لَكُمْ إِيمَانُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، رَبِّ الْمَجْدِ، فِي الْمُحَابَاةِ.
فَإِنَّهُ إِنْ دَخَلَ إِلَى مَجْمَعِكُمْ رَجُلٌ بِخَوَاتِمِ ذَهَبٍ فِي لِبَاسٍ بَهِيٍّ، وَدَخَلَ أَيْضاً فَقِيرٌ بِلِبَاسٍ وَسِخٍ،
فَنَظَرْتُمْ إِلَى اللاَّبِسِ اللِّبَاسَ الْبَهِيَّ وَقُلْتُمْ لَهُ: { اجْلِسْ أَنْتَ هُنَا حَسَناً }. وَقُلْتُمْ لِلْفَقِيرِ: { قِفْ
أَنْتَ هُنَاكَ } أَوِ: { اجْلِسْ هُنَا تَحْتَ مَوْطِئِ قَدَمَيَّ }
فَهَلْ لاَ تَرْتَابُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَصِيرُونَ قُضَاةَ أَفْكَارٍ شِرِّيرَةٍ؟
اسْمَعُوا يَا إِخْوَتِي الأَحِبَّاءَ، أَمَا اخْتَارَ اللَّهُ فُقَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ أَغْنِيَاءَ فِي الإِيمَانِ، وَوَرَثَةَ
الْمَلَكُوتِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُ؟]

[يعقوب: ١ - ٥]...

إلا أن إلهى لا يتبدّل...

إلهى فقير...

صديق الفقراء...

إلهى إله الناس الأحرار...

إله الذين يحبونه حبًا شاملاً فلا يحتفظون لأنفسهم بشئ...

إلهى يعطى ذاته لمن يكتشفون فى أعماق الفقر غناه...

غنى ليس له سواه...

إن هو إلا نور المحبّة...

[إِنَّ اللهَ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قَطُّ. وَلكِنْ، حِينَ نُحِبُّ بَعْضُنَا بَعْضاً، نُبَيِّنُ أَنَّ اللهَ يَحْيَا فِي
دَاخِلِنَا، وَأَنَّ مَحَبَّتَهُ قَدِ اكْتَمَلَتْ فِي دَاخِلِنَا]

[١ يوحنا ٤: ١٢]...

الكنيسة التى أحبها

كنت فى حديث عن الكنيسة مع جماعة من الملحدين...

فسألونى أن أرسم لهم صورة الكنيسة التى أحبها...

وكان رجاؤهم أن أخاطبهم بلغة يقبلونها وعلى الأخص أن أخاطبهم بإخلاص...

من المستحيل أن نرسم صورة كاملة...

فللكنيسة مئات الوجوه...

وهى تعنى ألف شئ...

لذا أرانى مضطرًا إلى إظهار بعض الخطوط الرئيسية فقط...

مما يساعد على تكوين فكرة اولى عنها...

الكنيسة التى أحبها:

- **تلك التى لا تقول: " عليك أن تطيعنى"، بل تقول:" علينا جميعًا أن نطيع خالقنا"...**
- **تلك التى تثق بأن المسيح هو الميناء وبأنها ليست إلا المنارة ، وتقيم البرهان على ذلك...**
- **تلك التى تؤمن ان الروح اكثر حضورًا فى إنسان يحب، منه فى سائر تنظيماتها...**
- **تلك التى لا تقترن بأى برنامج ولا تبيع نفسها له، سواء كان سياسيًا، أو اجتماعيًا، أو دينيًا، لأنها تعلم أن رسالتها إنما إخصاب " النعم" أو رفض " اللا" فى كل برنامج بشرى؟؟؟؟**
- **تلك التى، إذا شاهدت ضحل الإيمان عند الناس وشعرت بأن الزورق يكاد يغوص فى المياه، لا تمسك بالسوط، وتكتفى بأن تقول:" لماذا تخافون؟"، بل كما قال المسيح بكل الحب والحنان والتفهم والعمل: [** تَشَجَّعُوا ! أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا... يَا قَلِيلَ الإِيمَانِ لِمَاذَا شَكَكْتَ؟... وَلَمَّا دَخَلاَ السَّفِينَةَ سَكَنَتِ الرِّيحُ **] [متى ١٤: ٢٧، ٣١، ٣٢] ...**
- **تلك التى تفضل أن تزرع الآمال على أن تحصد الدموع...**
- **تلك التى، إذا التقت الهراطقة، تفضل ان تقاومهم وتتغنى بإيمانها الخالد غير المتزعزع الذى أساسه الوحى الإلهى...**

- **تلك التى تقول ببساطة إن ما نعرفه عن الله أقل بكثير مما نجهله، ولكن نؤمن أنه الألف والياء الأول والآخروالبداية والنهاية...**
- **تلك التى تسمح لنفسها بأن تسير دومًا فى الطليعة وأن تواجه أى خطر، لأنها تؤمن بوعد إلهى لا يزول، [وَأَبْوَابُ ٱلْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا] [متى ١٦: ١٨]...**
- **تلك التى تعى أنها إذا ما خطئت أو ضلّت، فلا ضير فى ذلك على المسيح...**
- **تلك التى تقول بصدق ودون تجبّر:" نحن شعب يسير نحو هدف واحد، ويتوجبّ علينا أن نسير معًا اليد فى اليد، ونشرب من الماء الواحد، ونجتاز المخاطر نفسها"...**
- **تلك التى، إذا ما أخطأتُ، تساعدنى على الاهتداء إلى مستقيم السبيل، ولا تدفعنى إلى الخروج عنها خروجًا ما بعده خروج...**
- **تلك التى تبرهن للعالم أنه من الممكن التوفيق بين أقصى حد من الحرية الإنسانية والطاعة للخالق : " الحرية المنضبطة"...**
- **تلك التى تحسن إعطائى " مجانًا" ما أخذته " مجانًا"...**
- **تلك التى تقيم البرهان على أن السعادة فى هذه الدنيا ممكنة دون المال والقدرة...**
- **تلك التى لا تفرض أحمالاً لاتستطيع هى حملها، مما تنوء به كواهل الفقراء...**
- **تلك التى تقدم لى بسخاء كل غناها الروحى، دون أن تفرضه علىّ تحت طائلة العقاب...**
- **تلك التى تؤكد لى أننى أزداد مسيحية بقدرما أزداد بحثًا وتساؤلاً وتعمقًا من أجل المزيد من الإيجاد...**
- **تلك التى تصغى بجدية وآمال معقودة إلى أصوات الفقراء والضعفاء، أكثر منها إلى أصوات الأغنياء والمقتدرين، لأنها تعلم أن الفقراء أوفر حرية وأقل تورطًا وأكثر انفتاحًا على الإله الذى لا ينفك يدعو البشر...**
- **تلك التى دعوتها هى المدافعة عن كل حق إنسانى، وليست حماية للامتيازات، سواء كانت لها أو لسواها...**
- **تلك التى تخلّص وهى تبارك وتسامح وتعذر، أكثر منها وهى تعاقب...**
- **تلك التى تؤمن بالمسيح أكثر منها بالمصارف والسياسة...**

- **تلك التى تبتغى النصر لا عن طريق القدرة، بلّ عن طريق القوة العجيبة المقدسة الكامنة داخلها وتحفظها...**
- **تلك التى تمنح الذين يؤمنون بها والذين يناهضونها، على حد سواء، الحرية والثقة...**
- **تلك التى تشكّ فى أمانتها للمسيح إن هى لم تُعان، لفترة طويلة، من اضطهاد الذين يسحقون الشعب والحريات...**
- **[** حِينَئِذٍ يُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى ضِيقٍ وَيَقْتُلُونَكُمْ وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنْ جَمِيعِ الأُمَمِ لأَجْلِ اسْمِي **] [متى ٢٤: ٩]...**
- **تلك التى لا تكتفى بألا تكون غنية إلا فى إيمانها وشعبها...**
- **تلك التى يختار خدّامها الجماعة المسيحية بارشاد الروح القدس، لا الذين يمارسون الضغوط...**
- **تلك التى تؤثر لرعاتها صدقًا يؤلم ولكنه يوقظ، على تبخير يدغدغ ولكنه يبعث على الرقاد...**
- **تلك التى تُعجَب بالجروح التى أصيب بها أبناؤها وهم يناضلون فى سبيلها، أكثر منها بما يتحلى به من نزاهة أخلاقية وعقلية ودينية أولئك الذين يعيشون فى دفء الوظائف والمراتب: [** وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ **] [متى ١٠: ٢٨]...**
- **تلك التى إذا واجهتنى أية من مشاكل الحياة، تستطيع أن تعطينى لا جوابها هى، بل جواب المسيح، وإن عَجَزَتْ عن الإجابة فتدعونى إلىالمساهمة معها فى بحث مشترك...**
- **تلك التى تعترف متواضعة بأنه لم يثفسّر حتى الآن من الوحى تفسيرًا نهائيًا ثايتًا سوى جزء ضئيل...**
- **تلك التى تقبل مسرورة أن يزرع الله فى حقول غير حقولها، ويحصد هناك ما قد يفوق الحصاد عندها...**
- **تلك التى تدرك أنها معرضة للخطأ فى بحثها ونضالها، ولكنها لا تشك البتة فى المسيح رجائها...**
- **تلك التى لا تقدّم لى إلهًا مثلجًا جامدًا، بل إلهًا حيًا، حاضرًا، لا يزال يتكلم، إلهًا نستطيع اكتشافه فى كل لحظة لأنه معين لا ينضب...**

- [أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ] [يوحنا ٥: ١٧]...
- تلك التى بوسعها أن تزرع فى كل ثقافة، وكل لغة، وكل فن راق، وكل تقنية، وكل تاريخ من تواريخ البشر...
- تلك التى لا تخشى أن تخطئ من جرّاء تمسكها الزائد بروح الإنجيل، بقدر ما تخشى الخطأ من جرّاء التشبث المفرط بسلطتها وصلاحيتها...
- تلك التى تكلمنى عن الله أكثر منها عن الشيطان، وعن السماء أكثر منها عن الجحيم، وعن الجمال أكثر منها عن الخطيئة، وعن الحرية اكثر منها عن الطاعة، وعن الرجاء أكثر منها عن السلطة، وعن المحبة أكثر منها عن الأبدية، وعن المسيح أكثر منها عن ذاتها، وعن العالم أكثر منها عن الملائكة، وعن جوع الفقراء أكثر منها عن المساهمة مع الأغنياء، وعن الخير أكثر منها عن الشرّ، وعمّا هو حلال أكثر منها عمّا هو حرام، وعمّا هو لا يزال قابلاً للبحث والتنقيب أكثر منها عمّا هو فى حيّز العلم، وعن اليوم أكثر منها عن البارحة...
- تلك التى لا تخشى الذين يخوضون فى سبل ومجالات جديدة، بل تدفعهم فيها وتحميهم...
- تلك التى تدافع عن القديسين فى حياتهم لا بعد مماتهم...
- تلك التى لا تخاف كل ما يستجد عليها ولم تختبره بعد...
- تلك التى تختلى على رأس الجبل إذا ما حاولوا أن يجعلوا منها ملكة، وتقدم يديها طوعًا للمسامير، لأنها على ثقة من أن الموت فى سبيل المسيح تعقبه الحياة، فيما انتصار الجبروت يعقبه الخذلان...
- تلك التى توفق بين أن تكون معلمة وتلميذة فى آن واحد...
- تلك التى هى النقطة المركزية لكل ما يُبذل من محاولات ليصبح الإنسان أكثر إنسانية...
- تلك التى تسير دومًا أمام القطيع على غرار الرعاة الشرقيين، وهى مستعدّة أبدًا لمواجهة هجمات السارقين، بدل أن تنتظر فى المؤخرة ليضحّى الآخرون بحياتهم، فتبارك ما قاموا به بعد أن تكون دانت تهورّهم...
- تلك التى تعتبر أن المسيح هو مقياس الإنسان، فى حين أن الإنسان هو مقياس الخليقة جمعاء...

- تلك التى لا تفرض علىّ أن أتخلّى عن شخصيتى لأكون مسيحيًا، ولكنها تساعدنى على اكتشاف ما زرعه الله فىّ من عجائب وثروات...
- تلك التى تؤكد لى أن الفصح قد انتصر وأننا بدأنا نُبعث من الأموات، وأننا نمهّد السبيل لأرض الغد التى لن تزول ولن تدول، وأن إلهنا الحى هو هنا، يعجز عنه الوصف، هو لنا ويختلف عن كل شئ، هو يبحث بطبيعة حاله إلى المتعثرين، والمهانين، والمجهولين، والمشردين الذين لا موطن لهم، والمتضورين جوعًا، والآخرين الذين هم سواء والعدم، ليقيمهم كما كان هو باكورة القائمين من بين الأموات...
- تلك التى كل همها ان تسعى إلى الأصالة لا العدد، أن تكون بسيطة تشرّع نوافذها للنور لا مقدرة، أن تكون مسكونية لا عقائدية جازمة، أن تكون قديسة لا أن تكسب تصفيق الجماهير، أن تكون للجميع لا أن تكون جامدة منعزلة...
- تلك التى تترك لى الحرية كاملة لأتخذ قراراتى بما يرضى ضميرى...
- تلك التى بوسعها أن تدرك وتقدّر، كما لا يدرك ولا يقدّر سواها، عمل الروح القدس فى أعماق ذاتى...
- تلك التى تنير ضميرى دون ان تحلّ محلّه...
- تلك التى لا خُلقية لها إلا تفوّق المحبّة على كل شئ...
- تلك التى تقدّم لى إلهًا أستطيع أن أكلمّه وأتعامل معه، وهو من الاختلاف عنى بحيث أستطيع أن أجد فيه ما لا قِبَل لى به حتى فى الحلم...
- تلك التى هى أم اكثر منها ملكة، ومحامى أكثر منها قاضٍ ديّان، ومعلّم أكثر منها شرطى...
- تلك التى رسالتها وجوهرها وكلامها وحياتها ودعوتها هى " نعم" ، " لتكن مشيئتك" ، " قم وامش" ، " اذهبوا وعمدوا" ،" اطلبوا واقرعوا"،" وارموا الشباك ثانية" ، بدل أن تكون " كلا"، " اتظروا" ، " عودوا إلى ماكنتم عليه"، " وكفوا"، " قفوا"...
- تلك التى تستطيع أن تكون رؤوفة بكل ضعف، وجبارة فى وجه كل رياء وخبث، ولا يمكنها ان ترمى بجواهرها للخنازير...
- تلك التى نارها مشتعلة أبدًا لمن يرتجفون بردًا، والتى خبزها حاضر أبدًا لكل جائع، وبابها مشرّع، ونورها يضئ، وسريرها جاهز للذين يسيرون تعبين، باحثين عن حقيقة وحب لم يُعط لهم بعد العثور عليهما...

قد يرتاح غيرى إلى وجه للكنيسة آخر..

أمّا أنا فهكذا أحبها لأنى بذلك أرى فيها، بما لا يدع مجالاً للشك، حضور المسيح الحىّ، المسيح المحب ، المسيح المصلوب من أجلى، الذى لم يأت للدينونة بل للخلاص...

إلهى رقيق

إلهى ليس إلهًا قاسيًا، مُغْلَق القلب، عديم الشعور والإحساس...

[هُوَذَا فَتَايَ اَلَّذِي اِخْتَرْتُهُ حَبِيبِي اَلَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ اَلأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي اَلشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ حَتَّى يُخْرِجَ اَلْحَقَّ إِلَى اَلنُّصْرَةِ. وَعَلَى اِسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ اَلأُمَمِ] **[متى ١٢: ١٨ - ٢١]...**

إلهى رخص رقيق...

أنا من جبلته...

إنه تأنس، وجعلنى شريكًا فى طبيعته الإلهية...

[كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلهِيَّة قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ،

اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ] **[٢ بطرس ١: ٣، ٤]...**

يريدنى أن أتذوق الألوهة، فيحبنى على تفاهتى...

إلهى جعل الحب رخصًا...

إلهى شارك أفراح البشر، عرف الصداقة وما توفره الأرض والأرضيات من سعادة...

إلهى عرف الجوع والتعب والألم...

إلهى كان حساسًا...

[وَبَكَى يَسُوعُ] **[يوحنا ١١: ٣٥]...**

إلهى غضب...

وكان وديعًا كالطفل...

إلهى ارتعد أمام الموت...

إلهى حوته أم فى أحشائها ورضع حنان المرأة..

[يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ لاَ تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرْيَمَ امْرَأَتَكَ لأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. فَسَتَلِدُ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ لأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُم] [**متى ٢: ٣، ٤]...**

[وَكَانَ خَاضِعاً لَهُمَا. وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذِهِ الأُمُورِ فِي قَلْبِهَا] [**لوقا ٢: ٥١]...**

إلهى أبرأ المرضى والمتألمين...

[وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانَ عِنْدَهُمْ سُقَمَاءُ بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدَّمُوهُمْ إِلَيْهِ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَشَفَاهُمْ] [**لوقا ٤: ٤٠]...**

إلهى اضطهدوه،

إلهى هللوا له...

[أُوصَنَّا لابْنِ دَاوُدَ! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي!] [**متى ٢١: ٩]...**

إلهى أحبّ كلّ ما يمت إلى البشر، إلا الخطيئة...

[مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟] [**يوحنا ٨: ٤٦]...**

إلهى كان من أهل زمانه...

لبس ما يلبسه جميع الناس، وتكلّم بلغة بلاده، وعمل بيديه، وجلجل صوته كما دوىّ صوت أنبياءه...

إلهى كان ضعيفًا مع الضعفاء، وصارمًا مع المتكبرين...

مات شابًا لأنه كان صادقًا مخلصًا...

قتلوه لأنه على حد زعمهم خان الحقيقة...

[أُصْلُبْه أُصْلُبْه] [**يوحنا ١٩: ٦]...**

إلا أن إلهى مات لا يعرف الضغينة...

مات وهو يعذر، وذلك أعظم الغفران...

[يَاأَبَتَاهُ اِغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ] [**لوقا ٢٣: ٣٤]...**

إلهى رخص رقيق...

إلهى ولّى ظهره للخُلُقية العتيقة، خُلقية " العين بالعين والسن بالسن"، خُلقية الثأر السخيف، لينشئ نوعًا جديدًا من الحب...

[سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً. مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِداً فَاذْهَبْ مَعَهُ اِثْنَيْنِ. مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ] [**متى ٥: ٣٨ - ٤٣]...**

إلهى يُطرح أرضًا ويعفّرون جبينه فى التراب، ويخونونه، ويخذلونه، وهو إلى ذلك لا ينفك يحبّ...

لذا فقد سار إلهى إلى الموت...

وبين يديه نبتت ثمرة جديدة، القيامة...

المسيح قام...بالحقيقة قام

بها نُبعث جميعًا...

إلهى ليس بالسهل، إلهى رقيق، إلهى الذى يبكى، إلهى الذى لا يدافع عن نفسه...

إلهى الذى يجب عليه أن يموت لينتصر...

[وَابْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيراً وَيُرْفَضَ مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَيُقْتَلَ وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ] **[مرقس ٨: ٣١]...**

[إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسَلَّمَ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي أَيْدِي أُنَاسٍ خُطَاةٍ وَيُصْلَبَ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ] **[لوقا ٢٤: ٧]...**

إلهى الذى جعل من لصّ مجرم أول قديس مطوّب فى كنيسته...

[الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِي فِي الْفِرْدَوْسِ] **[لوقا ٢٣: ٤٣]...**

إلهى الشاب الذى مات وقد اتهموه بأنه مشاغب سياسى...

إلهى الكاهن النى الذى حُكم عليه بالإعدام على خشبة، فكان موته أول وصمة عار فى سجل محاكم التفتيش الدينى فى التاريخ...

إلهى الرقيق ليس بالسهل المراس، إلهى صديق الحياة، إلهى الذى عضه ناب التجارب جميعها ....

إلهى الذى تصبب منه العرق دمًا يخضع لمشيئة أبيه...

[وَإِذْ كَانَ فِي جِهَادٍ كَانَ يُصَلِّي بِأَشَدِّ لَجَاجَةٍ وَصَارَ عَرَقُهُ كَقَطَرَاتِ دَمٍ نَازِلَةٍ عَلَى الأَرْضِ] **[لوقا ٢٢: ٤٤]...**

هذا الإله ليس بالسهل...

إلهى الرقيق ليس بالسهل مع جميع الذين لا ينتصرون إلا بالغلبة، ولا يدافعون عن أنفسهم إلا بزرع الموت...

ليس هو بالسهل مع الذين يجعلون الخلاص مرادفًا للاجتهاد لا العطاء...

للذين يرون أن شئون البشر هى سواء والخطيئة...

للذين لا يرون فى القديس إلا حكيمًا متقشفًا، وما كان المسيح فى نظرهم سوى ملاك...

إلهى رقيق ليس بالسهل...

ما كان سهلاً للذين لا ينفكون يحلمون بإله لا يشبه الإنسان...

[فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ.

هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ.

وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً **]**

[يوحنا ١: ١، ٢، ١٤]...

<u>رجاء:</u>

أرجو أن يستخرج القارئ آيات أخرى من الكتاب المقدس كتدريب للتأمل ومعايشة للمقال...

علامَ تقوم الدينونة

المسيح هو الديان...

[وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيْضاً لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ.

لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ

فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ **] [يوحنا ٥: ٢٧ ـ ٢٩]...**

ومن وجهة نظر أخرى ...

فإننا نحن الذين ننطق بالحكم على أنفسنا:

[إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ **] [رومية ٨: ١]...**

إن الدينونة كما يؤكد الإنجيل بحسب القديس يوحنا تتم باستمرار طوال فترة وجودنا على الأرض...

[الآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ **] [يوحنا ١٢: ٣١]...**

فكلما اخترنا الخير والصلاح فإننا سندخل مسبقًا منذ الآن إلى الحياة الأبدية...

وحينما نختار الشر فإننا ننال من الآن تذوقًا مسبقًا للجحيم...

من الأفضل أن نفهم " الدينونة الأخيرة" على أنها لحظة الحق...

حينما ينكشف كل شئ فى النور...

حينما تصير كل اختباراتنا مكشوفة لنا بكل ما تتضمنه من نتائج...

وحينما نعرف بوضوح كامل من نحن وماذا كان المعنى العميق لحياتنا وما هو هدفها؟...

وهكذا، فبعد هذا التوضيح الكامل ـ فإننا سندخل بالنفس والجسد متحدين معًا ـ إما إلى السماء أو إلى جهنم...

أى إما إلى الحياة الأبدية أو إلى الموت الأبدى...

من أشد صفحات الإنجيل بعثًا على الخوف، تلك التى تصوّر لنا " الدينونة الأخيرة"...

فإننا نشعر لدى مطالعتها بأنها تحمل لنا تعليمًا للمسيح شديد اللهجة، عسير القبول، صعب التفسير، محيرًا...

ذلك بأننا ما زلنا نجرّ وراءنا بعد عشرين قرنًا من المسيحية، رواسب الروح اليهودية المتزمتة المتمسكة بالحرف والشريعة...

فنربط بين الخلاص والطقوس والشرائع والوصايا والبعد الأفقى فى حب الله...

وبطبيعة الحال نشعر بأن مثلاً كمثل الدينونة الأخيرة لا يبعثنا على الارتياح...

أهمية هذا المثل غنية عن البيان...

فالمسيح يخاطبنا فيه عن الفترة الحاسمة فى وجود الإنسان، عن الوقت الذى يُطلب منه تأدية الحساب لخالقه...

وأسلوب المثل نفسه لا يخلو من عظمة، كما أنه لا يدعو إلى أى التباس...

فالكلام يدور على الدينونة والخلاص، على البركة واللعنة، على الدعوة والرفض، على الأبدية...

والمسيح نفسه يكشف ثمة أحد أعظم الأسرار المطروحة على الإنسان...

سرّ سبق لعلماء الشريعة أن سالوه عنه مستفسرين...

فيكشف عن مقاييس اختيار الله للبشر...

يكشف عن الحقيقة المجردة لما هو مسيحى وما ليس مسيحى...

فيعلن لمّا تأزف ساعة الحقيقة...

من سيدخل ملكوته ومن سيبقى عند الباب للأبدّ...

المثل بيّن، واضح كل الوضوح، والأطفال أنفسهم يحسنون فهمه...

ولعل هذا الوضوح العظيم بالذات...

ولعل هذا النور الباهر المنبعث منه هو ما يعمى بصائرنا...

وقد اعتادت على تقويم أمور الله بمقاييسنا المعقدة ومنطقنا الذى يحسب ألف حساب...

وما يحيّر فى هذا المثل لا يمت على المثل نفسه...

بلّ إلى الإله الكامن فيه...

إله لا يقـاس بعلومنا الرياضية...

إله أقـترب ما يكون إلينا ولكنه أبعد ما يكون أيضـًا...

لأنه " مختلف" ...

لأنه " متميّز"...

لأنه " الآخـر"...

فماذا يقـول المثل؟...

فى إنقـضاء الزمان يجلس ابن الإنسان علـى عـرشه ويدن العـالم...

وكما يفصل الراعى بين النعـاج والتيوس، سيفصل بين الأبرار عـن الأشرار...

وسيقيم الأبرار عـن يمينه...

وهو مقـام الشرف...

والأشرار عـن يساره...

وسيقـول المسيح للذين عـن اليمين:

[تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ.

لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي.

عُرْيَاناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ] **[متى ٢٥: ٣٤ ـ ٣٦]...**

فيجيبون متعجبين:

[يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ أَوْ عَطْشَانَاً فَسَقَيْنَاكَ؟

وَمَتَى رَأَيْنَاكَ غَرِيباً فَآوَيْنَاكَ أَوْ عُرْيَاناً فَكَسَوْنَاكَ؟

وَمَتَى رَأَيْنَاكَ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً فَأَتَيْنَا إِلَيْكَ؟] **[متى ٢٥: ٣٧ ـ ٣٩]...**

فيقـول الملك:

[بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ] **[متى ٢٥: ٤٠]...**

ثم يقـول للآخـرين:

[اِذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ

لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي.

كُنْتُ غَرِيباً فَلَمْ تَأْوُونِي. عُرْيَاناً فَلَمْ تَكْسُونِي. مَرِيضاً وَمَحْبُوساً فَلَمْ تَزُورُونِي] **[متى ٢٥: ٤١ ـ ٤٣]...**

فيجيبه هؤلاء أيضـًا:

[يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً أَوْ عَطْشَاناً أَوْ غَرِيباً أَوْ عُرْيَاناً أَوْ مَرِيضاً أَوْ مَحْبُوساً وَلَمْ نَخْدِمْكَ؟] [**متى ٢٥: ٤٤**]...

فيجيبه الملك:

[بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا] [**متى ٢٥: ٤٥**]...

لقد سمّى أحدهم هذا المثل مثل " الملحدين" لأنه يشير إلى أن الجميع فى ذلك اليوم، المسيحيين وغير المسيحيين، سيكتشفون أنهم لم يعرفوا المسيح حقًا، وسيطرحون عليه جميعًا السؤال نفسه متعجبين:

[يَارَبُّ مَتَى رَأَيْنَاكَ؟]...

وقال لى ذات يوم أحد العلمانيين المتشرّبين روح الإنجيل:

{ فى هذا المثل يتم لنا ما اعلنه المسيح لرسله: أنطق بالأمثال لكيما يسمعونها ولا يفهمون }...

وأردف قائلاً: { مضت علينا قرون من المسيحية وما زالت هذه الصفحة من الإنجيل تثير منا العجب بحيث لا نزال نسئ فهمها، فنؤثر التقليل من أهميتها أو نسدل عليها ستارًا من النسيان }...

أمّا سبب ذلك، فلنقله بصراحة:

هو أن المسيح هنا يحطم مفاهيمنا المصطنعة المسبقة، ويهدم بناءنا الدينى الجميل بأسره...

بناء أسّس على الظواهر لا تهبّ فيه الروح...

لو قيض لنا ان نضرب هذا المثل، لجعلنا للمسيح الديان معيارين مختلفين لدينونة المؤمنين والملحددين...

المسيحيين وغير المسيحيين...

وأننا ولو كنا تحاشينا مواقف اليهود المتطرفة، التى تجود بالرحمة على إسرائيل وتقضى على الوثنيين...

إلا أنّا لمّا كنا ترددنا فى أن نمنح المزيد من الرحمة للذين يموتون على الإيمان...

بيد أن فى المثل أمرين هما فى غاية الوضوح...

يقول الإنجيل:

[لأَنَّ جَمِيعَ الأُمَمِ سَيَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ، لأَنَّ أَحْكَامَكَ قَدْ أُظْهِرَتْ] [**الرؤيا ١٥: ٤**]...

أى أن الجميع سيحاسبون ...

لأن الجميع لله ولأنه تعالى كان حاضرًا فى تاريخ الجميع...

ولا يقوم الاعتراض الذى راجت سوقه فى ما مضى، من ان الدينونة لا تطال إلا المؤمنين لأن الجميع يكونون قد اهتدوا فى ذلك اليوم...

فقد كتب المفسر الشهير " شميدت" منذ ربع قرن :

{ من المستحيل أن نقصر الدينونة على المسيحيين وحدهم، أو نفترض أن جميع الشعوب والإنسانية بأسرها ستكون فى يوم الدينونة على إيمان الإنجيل، ما يجرى هنا يهمّ فى الواقع جميع الناس، الوثنيين منهم واليهود والمسيحيين }...

ستجرى الدينونة بموجب مقياس وحيد شامل يسرى على الجميع:

[كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ حَقّاً أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ, فَهُوَ مَوْلُودٌ مِنَ الله. وَمَنْ يُحِبُّ الْوَالِدَ، فَلاَبُدَّ أَنْ يُحِبَّ الْمَوْلُودِينَ مِنْهُ أَيْضاً.

وَمَا يُثْبِتُ لَنَا مَحَبَّتَنَا لأَوْلاَدِ اللهِ هُوَ أَنْ نُحِبَّ اللهَ وَنَعْمَلَ بِوَصَايَاهُ.

فَالْمَحَبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ لِلهِ هِيَ أَنْ نَعْمَلَ بِمَا يُوصِينَا بِهِ. وَهُوَ لاَ يُوصِينَا وَصِيَّةً فَوْقَ طَاقَتِنَا.

ذَلِكَ لأَنَّ الْمَوْلُودَ مِنَ اللهِ يَنْتَصِرُ عَلَى الْعَالَمِ. فَالإِيمَانُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَنْتَصِرُ عَلَى الْعَالَمِ.

وَمَنْ يَنْتَصِرُ عَلَى الْعَالَمِ إِلاَّ الَّذِي يُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ابْنُ اللهِ؟ **] [١ يوحنا ٥: ١ - ٥]....**

سواء كانوا مسيحيين أو لم يكونوا...

وهذا المقياس أنْ هو إلا ما فعلوه من خير...

لا ليستعطفوا بركات الله أو لينالوا أجرًا كان القريب فيه وسيلة...

بل حبًّا للإنسان لمجرد حبّه ولمجرد كونه إنسانًا...

وهذا المقياس سيُعمل بموجبه فى هذه اللحظة مع المؤمن والملحد على السواء...

لأن شريعة المحبة والنزعة إلى الخير والدعوة إلى التآخى هى مكتوبة فى باطن كل إنسان قبل أن تتلى عليه عن طريق الوحى الخارجى...

وهذا المعيار محيّر جد محيّر...

يذهل له المسيحيون والتلاميذ أنفسهم...

فيهتفون وكأنى بهم ملحدون: [مَتَى أَطْعَمْنَاكَ أَوْ سَقَيْنَاكَ أَوْ كَسَوْنَاكَ ؟**] ...**

ذلك بأنهم كانوا واثقين من أنهم مارسوا الصلاة وأعلنوا الإنجيل، وأوجدوا المسيح بين البشر تحت شكل سر الأفخارستيا، واعترفوا به أمام الملأ، وزاروه فى بيت القربان، وصاموا حبًا له، وتألموا فى أجسادهم ليتحدوا بآلامه وموته...

لأمّا أن يُدْعَوا " طوباويين" من أجل مافعلوه للمسيح على غير علم وفهم - لأنهم أطعموه هو وزاروه هو فى سجنه - فذلك ما لا يفهمونه:

" أحقًا فعلنا لك؟، ومت كان ذلك؟ "...

إن مقياس الدينونة هذا، مقياس محبّة القريب، لا يحيّرنا نحن المسيحيين...

فلو ضربنا نحن هذا المثل ، لرويناه على نحو مختلف...

ولكنا راعينا، دون شك، جانب محبة القريب، إلا أننا كنا أولينا الصدارة لمقاييس أخرى كالتوبة، والإيمان بالإنجيل

[فَقَالَ يَسُوعُ: { الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ.] **[يوحنا ٣: ٣، ٥]...**

والاعتراف بالمسيح:

[مَنِ اسْتَحَى بِي وَبِكَلاَمِي فِي هَذَا الْجِيلِ الْفَاسِقِ الْخَاطِئِ فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ مَتَى جَاءَ بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ]

[مرقس ٨: ٣٨]...

والوصايا العشر:

[أَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لاَ تَزْنِ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. لاَ تَسْلِبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ] **[مرقس ١٠: ١٩]...**

وحب الله:

[تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ] **[لوقا ١٠: ٢٧]...**

وطهارة القلب:

[طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ] **[متى ٥: ٨]...**

والتواضع، والتجرّد عن العواطف والأموال الأرضية:

[مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ] **[مرقس ١٠: ١٥]...**

والألم:

[وَلاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ] **[متى ١٠: ٢٨]...**

والأمانة لأسرار المسيح و الكنيسة، إلى ما شابه ذلك...

لقد انصرفت منذ اثنتى عشر سنة إلى الدراسة الجدّية لكلام الله، ولم أفوّت على فرصة واحدة للتطرّق إلى مفارقات هذه الصفحة { الآيات} من إنجيل متى مع من كنت التقيهم من خيرة المفسرين واللاهوتيين والأساقفة...

ففى كل مرة كان السؤال نفسه يتبادر إلى لسانى:

لماذا لا يتكلّم المسيح إلا عن حب القريب، وعن حب للقريب لا علاقة مباشرة مع الله - إذ يشير الإنجيل إلى أن الأبرار يتعجبون لما يعزو المسيح إلى نفسه ما قد فعلوه للبشر: " متى أطعمناك أنت"؟...

لقد جمعت مئات الأجوبة من مئات الإختصاصيين، وكلها تنطق بالمقال نفسه: إنها صفحة مذهلة غريبة...

لا جرم أنه من الخطورة بمكان...

ومن محيّر الأمور بمكان فى رأينا، أن يضرب المسيح صفحًا عن كل المقاييس التى قد نجعلها نحن فى المقدمة...

بيد أنه من الواضح أن المسيح وإن لم يرفض المقاييس الأخرى...

إلا أنه يميل إلى إعطاء الأهمية ساعة الدينونة، إلى محبة القريب...

إلهنا يعتبر بارًا من أحبّ الناس بصدق وسخاء من خلاله...

ويعتبر مرذولاً من لم يحب قريبه...

حتى إن هو أكثر من الصلوات وبالغ فى الإيمان واجترح المعجزات...

أمّا المسيح فموقفه يذهلنا...

منطقنا البشرى - شتان ما بينه وبين المنطق الإلهى - يلجأ إلى الاستنتاج التالى:

فإن تكلّم المسيح عن محبة القريب فلأنه يفترض وجود كل ما سواها...

ذلك بأنه يبدو لنا من باب المستحيل أن يحب المرء قريبه حبًا مخلصًا حقًا دون الإيمان العميق بالله، دون التقوى، دون إماتة الحواس، دون ممارسة الأسرار بتواتر، ونعتبر بالنتيجة أن من يحب قريبه يقيم البرهان على أنه كان أمينًا فى سائر الأمور الأخرى...

أما منطق المسيح:

فهو فى غاية الوضوح، وكفى دليلاً الرجوع إلى الإنجيل بحسب القديس متى

[لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ يَا رَبُّ يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ **] [متى ٧: ٢١]...**

فثمة يقول المسيح إنه إذا ما حلّت ساعة الدينونة، سيُبرز الكثير من المؤمنين سجلاتهم...

ولكنها لن تجديهم نفعًا ما لم تكن أيديهم ملأى بحب القريب:

[كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ: يَا رَبُّ يَا رَبُّ أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟**] [متى ٧: ٢٢]...**

فيقول الله لهم:

[فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اِذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي ٱلإِثْمِ! **] [متى ٧: ٢٣]...**

ولقد خاطبهم قبل ذلك بقليل عن الشجرة التى تأتى بالثمار الطيبة...

فما يستهوى المسيح هو القلب الطيب، الثمر اليانع اللذيذ، ولا يهمه أين وأنّى أيْنَع، أكان فى الشرق أم فى الغرب، على ضفاف الإيمان الخصيبة أم فى صحارى الإلحاد القاحلة...

فإن كان الثمر رديئًا أو معدومًا، فما نفع القول إن الشجرة ارتوت بمياه العماد ودماء الذبيحة أو إنها تغذت بشمس الإيمان الوهّاجة...

إن ذلك الثمر لعديم النفع، وإنه لردئ...

ولقد قال القديس بولس فى هذا المعنى:

[إِنْ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ بِأَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ وَٱلْمَلاَئِكَةِ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَقَدْ صِرْتُ نُحَاساً يَطِنُّ أَوْ صَنْجاً يَرِنُّ.

وَإِنْ كَانَتْ لِي نُبُوَّةٌ وَأَعْلَمُ جَمِيعَ ٱلأَسْرَارِ وَكُلَّ عِلْمٍ وَإِنْ كَانَ لِي كُلُّ ٱلإِيمَانِ حَتَّى أَنْقُلَ ٱلْجِبَالَ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَلَسْتُ شَيْئاً.

وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئاً**]**

[١ كورونثوس ١٣: ١ - ٣]...

أجل إنه من الثابت أن أحد السبل إلى الخلاص، بحسب المفاهيم الإنجيلية...

هو الالتزام حبًا للقريب والأخ...

هو الالتزام بحب القريب من أجل ذاته...

أى بدافع من متطلبات الحب الباطنة...

وما هذا الحب فى مصدره إلا الجوهر الإلهى ...

[أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضاً: لأَنَّ ٱلْمَحَبَّةَ تَصْدُرُ مِنَ اللهِ. إِذَنْ، كُلُّ مَنْ يُحِبُّ، يَكُونُ مَوْلُوداً مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ .

أَمَّا مَنْ لاَ يُحِبُّ، فَهُوَ لَمْ يَتَعَرَّفْ بِاللهِ قَطُّ لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ!

وَقَدْ أَظْهَرَ اللهُ مَحَبَّتَهُ لَنَا إِذْ أَرْسَلَ ٱبْنَهُ الأَوْحَدَ إِلَى الْعَالَمِ لِكَيْ نَحْيَا بِهِ.

وَفِي هَذَا نَرَى ٱلْمَحَبَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، لاَ مَحَبَّتَنَا نَحْنُ لِلهِ، بَلْ مَحَبَّتَهُ هُوَ لَنَا. فَبِدَافِعِ مَحَبَّتِهِ، أَرْسَلَ ٱبْنَهُ كَفَّارَةً لِخَطَايَانَا

وَمَادَامَ اللهُ قَدْ أَحَبَّنَا هَذِهِ الْمَحَبَّةَ الْعَظِيمَةَ، أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، فَعَلَيْنَا نَحْنُ أَيْضاً أَنْ نُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضاً] **[١يوحنا ٤: ٧ - ١١]...**

ونختم بقول سليمان الحكيم:

[فَلْنَسْمَعْ خِتَامَ الأَمْرِ كُلِّهِ: اِتَّقِ اللَّهَ وَاِحْفَظْ وَصَايَاهُ لأَنَّ هَذَا هُوَ الإِنْسَانُ كُلُّهُ. لأَنَّ اللَّهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ إِنْ كَانَ خَيْراً أَوْ شَرّاً **] [جامعة ١٢: ١٣، ١٤]...**

السلطة فى مفهوم المسيح

كل مرة نطالع فيها الإنجيل بإمعان دون سابق أحكام، نضطر إلى الإقرار بأننا غالبًا ما حاولنا مسخ صورة المسيح...

ومن أصعب ما يعترضنا فى قراءة الإنجيل قراءته ببساطة...

فالبساطة فيها قوى متفجرة...

لذا نخافها...

ونخاف بساطة إنجيل " يُقرأ" ولا " يؤول"...

إننا نعش فى زمن من أحرج أزمنة تاريخ الكنيسة { الكاثوليكية }...

فنقول أن الأزمة ضاربة أطنابها فى سائر الميادين...

أزمة فى السلطة...

أزمة فى الطاعة...

والإيمان، والأخلاق ، والرجاء...

والجميع فى كل مكان يشعرون بحاجة ماسة إلى مضاعفة الجهود للخروج من هذه الأزمات، ظاهرة كانت أو حقيقة...

إلا أننى أخشى فى بعض الأحيان، أن تكون هذه الحاجة إلى حلّ الأزمة، رغبة دفينة فى الرجوع إلى هدوء الماضى، والهروب مما تجلبه إعادة الأمور على بساط البحث من عدم ارتياح ، والتنصّل من الألم الناتج عن كل تقويم فى العمق، وعن كل اعتراف دامٍ بأغلاطنا وحدودنا...

وفى خضم ظلمات هذه الأزمة، لايزال المسيح فى نظرنا، نحن المسيحيين، النور الأمين:

[يَا رَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كَلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ **] [يوحنا ٦: ٦٨]...**

ولا بد لنا، ساعة أن تحتدم الأزمات فى تاريخنا المسيحى، من أن نتخطى الأجوبة الفلسفية والثقافية والعلمية وما هو منها على مستوى الإنسان فقط...

فهى وحدها لا تكفى...

وليكن المسيح جوابنا " الحى"...

وليكن كلمة سهلة بحيث يستطيع كل إنسان أن يقرأها...

كلمة عصرية بحيث تساعد فى حل كل المشاكل وأشدها خطورة...

كلمة تلبى أعمق المتطلبات فى الذين يبحثون باستمرار، والذين يريدون أجوبة مستحدثة عن مشاكلهم الخاصة...

والذين يحلمون بإله يعيش معهم، ويحل مشاكلهم...

شريطة أن يظل كما كان، وإلى الأبد، إله المحبة...

كثرت المؤلفات اليوم حول ما يسميه بعضهم بأزمة السلطة...

فيما يشدد البعض الآخر على أن ثمة أزمة الطاعة...

فهذا يقول:

{ الرؤساء لا يُطاعون لأنهم لا يحسنون الخدمة }...

وذاك يجيب:

{ المرؤوسون لا يُطيعون لأنهم لا يحسنون التجرّد }...

علّمنا المسيح مثالاً عمليًا وهو الذى له السلطة والسلطان:

[قَالَ لَهُ يَسُوعُ: { اَلَّذِي قَدِ اِغْتَسَلَ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ إِلاَّ إِلَى غَسْلِ رِجْلَيْهِ بَلْ هُوَ طَاهِرٌ كُلُّهُ. وَأَنْتُمْ طَاهِرُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّكُمْ }.

فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضاً قَالَ لَهُمْ : أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟ أَنْتُمْ تَدْعُونَنِي مُعَلِّماً وَسَيِّداً وَحَسَناً تَقُولُونَ لأَنِّي أَنَا كَذَلِكَ. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا اَلسَّيِّدُ وَاَلْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. اَلْحَقَّ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ] **[يوحنا ١٣: ١٠، ١٢ - ١٦]...**

وأكد ذلك عندما تقدمت إليه أم ابنى زبدى وسألته أن يجلس أحد أبنائها عن يمينه والآخر عن يساره فأجاب يسوع معلمًا:

[فَدَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ: { أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رُؤَسَاءَ اَلأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ وَاَلْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ . فَلاَ يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيماً فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِماً وَمَنْ أَرَادَ أَنْ

يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلاً فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْداً كَمَا أَنَّ اِبْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ }] [متى ٢٠: ٢٥ - ٢٨]...

لا شك فى أن علوم النفس والاجتماع والتربية وسواها، تقوم بدور جدّ هام فى تفهم مظاهر السلطة والطاعة...

مما لا ينحصر فى النطاق الدينى فحسب...

بيد أننى أرى أن علم النفس وغيره من العلوم لا يمكنها أن تدلى لنا نحن المسيحيين بالجواب الشافى...

فلا بد من اللجوء للمسيح...

[وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تُدْعَوْا سَيِّدِي لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ وَأَنْتُمْ جَمِيعاً إِخْوَةٌ.

وَلاَ تَدْعُوا لَكُمْ أَباً عَلَى الأَرْضِ لأَنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ.

وَلاَ تُدْعَوْا مُعَلِّمِينَ لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ الْمَسِيحُ.

وَأَكْبَرُكُمْ يَكُونُ خَادِماً لَكُمْ.

فَمَنْ يَرْفَعْ نَفْسَهُ يَتَّضِعْ وَمَنْ يَضَعْ نَفْسَهُ يَرْتَفِعْ] [متى ٢٣: ٨ - ١٢]...

إن الذى يحب، والذى هو أشد الناس حبًا، هو الذى يستطيع، دون سواه، ممارسة الحكم والخدمة ...

هذا هو المقياس الواجب اعتماده فى اختيار الرؤساء...

بيد أنه من المؤسف أن مقاييسنا غالبًا ما تكون على عكس مقاييس المسيح...

لذلك احتفظنا بكلمة " رئيس" ...

أفتراه رئيسًا ذاك الذى يتوجب عليه أن يُخدَم من الجماعة؟...

والمستهجن فى الأمر أننا نسعى فى أن يكون الرئيس فى كل شئ إلا فى الشئ الذى شدّد المسيح عليه قبل سواه، وهو المحبّة...

يجب أن تُسدى مقاليد الخدمة فى الأبرشيات والكنيسة، إلى من هو المتقدم فى المحبة...

ولا ضير إن كان أقل تبصرًا من الآخرين، وأقل ثقافة،

اللهم إلا إنْ كنا نبغى تغيير الإنجيل والمسيح...

البسيط هو الذى لا يستحى بالمجاهرة بالإنجيل...

وإنه ليجاهر به كاملاً وفى سائر المناسبات وأمام أى كان...

البسيط هو الذى يتبيّن ما هو الجوهرى فى كل مسألة ولا يدع العرضى يعرقل مسيره...

يوم نتجاسر فنولى على جماعاتنا المسيحية أناسًا من أمثال بطرس ويوحنا وبولس...

أناس شريعتهم الوحيدة هى المحبّة...

وأسلوبهم الرعوى الوحيد هو البساطة الإنجيلية...

أناسًا يشرعون أبوابهم على مصاريعها لكل مخاطرة، ودفاع عن الإيمان ...

ورائدهم ما يرشدهم إليه روح الإله الحى...

أناسًا يلتهم حبهم المتأجج العوائق البشرية فيكون نور رجاء وغذاء لكل جائع إلى كلمة الله...

يومئذ تزول أزمة السلطة وتزول معها أزمة الطاعة...

نحن بحاجة إلى قوة جديدة لنستطيع قراءة الإنجيل بعين الأطفال وقلوبهم...

وما هى فى الحقيقة سوى عينى إله المسيحيين وقلبه...

[كَأَطْفَالٍ مَوْلُودِينَ الآنَ اشْتَهُوا اللَّبَنَ الْعَقْلِيَّ الْعَدِيمَ الغِشِّ لِكَيْ تَنْمُوا بِهِ **] [١ بطرس ٢: ١، ٢]...**

عنف المسيح الجديد

[أَيَّامِ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ إِلَى الآنَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ وَالْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ.
لأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ وَالنَّامُوسَ إِلَى يُوحَنَّا تَنَبَّأُوا.
وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا فَهَذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ.
مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ] **[متى ١١: ١٢ - ١٥]...**

يتفق المفسرون على أن هذه الآيات هى من أصعب فقرات العهد الجديد تأويلاً...

فعلى سبيل المثال كتب فيها العلامة شميدت:

{ إنها من أشدّ آيات الإنجيل غموصًا }...

ولا يُخفى أن أحد مبادئ تفسير الكتاب المقدس يقوم على اعتبار أشدّ النصوص غموضًا أكثرهم نصيبًا من الصحة...

لأن النسّاخ طالما شعروا بالدافع إلى توضيح النصوص العسيرة التأويل...

لم يُعْط حتى اليوم تفسير مقنع لهذه الآية من إنجيل متى...

فجلّ ما كان من ذلك أن الاتفاق تم على تأويل سهل بديهى يقول" بالعنف الباطنى"...

أى أن المسيح يعلمنا هنا أنه لا بدّ للمرء طالب القداسة أن يُعَنّف ذاته ويقهر أهواءه ويضحّى بملذاته...

لا ننكر أن هذا التأويل معقول...

بيد أنه لا مناص لنا من الظن أن كلمات المسيح هذه تنطوى على أكثر من ذلك...

فالعبارة الأخيرة [مَنْ لَهُ أُذُنَان لِلسَّمْع فَلْيَسْمَعْ **] تشير إلى أن المسيح أدرك كل الإدراك أنه قال ما يصعب فهمه...**

وهذه العبارة هى ما استعمله بالذات فى مناسبات أخرى حيث أملى بتعاليم صعبة تكاد لا تُفهم...

مثال ذلك ما قاله فى شأن الذين يضحون بأنفسهم وبذواتهم فيتخلون عن عائلاتهم ليتفرّغوا للتبشير بالملكوت:

[يُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ **] [متى ١٩: ١٢]...**

قال البابا بيوس الثالث عشر:

{ إنه ليس من المستبعد على الإطلاق أن تدركنا نهاية العالم قبل أن نتمكّن من فهم بعض ما أوحاه المسيح فى الكتاب...

وما هذا فى الحقيقة إلا البرهان على أن كلامه يسمو علينا وعلى مداركنا...

وأنه يحمل فى أعماقه ذاك المطلق الذى يأتيه من وجود الله فيه...

إلا أنه لا يجدر بنا أن نقف مكتوفى الأيدى أمام المقاطع الصعبة...

بل المطلوب أن نصغى إلى علامات الأزمنة، وهى أقد رمما نظن على مساعدتنا لاستجلاء معانى الكتاب...

فلا يبعد أن يكون لكل زمان، ولكل مشكلة جديدة تواجه الإنسان، جواب حاضر يخبئه المسيح...

ويترتب علينا اكتشافه بالخضوع للروح القدس الذى لا يزال يعمل ويكشف لنا عن كل شئ }...

من الأكيد أن العنف كان فى العالم منذ البداية...

ولكنه اضحى اليوم علامة...

لأنه يتزيّأ ببعض الميزات الخاصة...

فليس العنف اليوم عامل قوة ودفاع فحسب، بل إنه مفهوم فلسفى وسوسيولوجى وسياسى...

فهناك العنف بأشكاله المتطرفة كالثورات الدامية...

والعنف فى الاصطدامات بين الطلاب وقوى الأمن...

والعنف فى مظاهر التمرّد والعصيان والرفض...

والعنف السلبى فى الإضرابات، والاستنكارات الصامتة، والمظاهرات بدون سلاح...

والعنف بين الصغار: فالصحف نشرت خبر ثلاثين ولدًا أعلنوا الاضراب فى أحد المستشفيات احتجاجًا على تصرّف كبير المسؤولين فيه...

والعنف بين غير المسيحيين، من أمثال هؤلاء البوذيين الذين أحرقوا انفسهم...

والعنف عند المسيحيين الذين يعتصمون فى الكاتدرائيات والمطرانيات والمدارس الاكليريكية وسواها من الأماكن، للاحتجاج على مواقف السلطات الكنسية...

والعنف عند المقتدرين الذين يلجمون الحريات ليثبتوا امتيازاتهم، يقابله العنف عند الفقراء ليتحرروا من نير المظالم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية...

وقد يكون هذا العنف شيطانًا كما يمكنه ان يكون عادلاً...

فالعنف هو اليوم ظاهرة جماعية، وهو أشبه بسلاح شامل يستخدمه الماس فى سائر المجالات...

وأمام هذه الظاهرة يقف المسيحيون متسائلين، لأن مفهوم العنف المسيحى دقيق المواجهة والمعالجة...

فالعنف موقف محيّر..

لأن عقليتنا الدينية لم تفهم العنف إلا داخليًا فحسب...

ولم تألف مواجهة العنف الخارجى إلا بالجمود وأليدى المكتوفة...

والعنف موقف صعب لأن الموعظة على الجبل تطوّب المسالمين، وتعلن أن العنف على أنواعه ليس بمسيحى...

والعنف موقف شائق مثير لأن المسيحى هو ابن عصره، والعنف، سواء كان فعالاً أو لم يكن، هو علامة واضحة من علامات جيلنا...

وإنى لأعرف من المسيحيين من تتألم ضمائرهم أشد الألم تجاه مشاكل العنف...

ففيما تعلّموا أن الإنجيل يحمل رسالة الخضوع الصامت...

إذا بمهماز التضامن مع أبناء عصرهم ومع العادلين والملتزمين والذذين بنبذون الأثرة والتقوقع، يدفعهم إلى ركوب خضمّ العنف المضطرب...

وفى مثل هذه الحالات لا بدّ أن يتوجّه المخلصون نحو الكنيسة، نحو المسيح فيطلبون إليه كلام الهدى...

لا بل يطالبون به على غرار ما قاله بطرس الرسول، ويشعرون فى قرارة نفوسهم بأن عند المسيح وحده كلام الحياة الأبدية...

أى الكلام الأصيل الحق...

الكلام الثابت الذى لا يتبدّل ولا يتشوّه...

فى مثل هذه الحالات علينا استجلاء كنوز الوحى الإنجيلى بمزيد من الصدق والرجاء والعزيمة...

للوصول من خلاله إلى جواب الله عن المشكلة التى نواجهها اليوم...

لِمَ إذًا لا نعود إلى آية متى ، والتى تتكلم بصراحة عن العنف؟...

وإن هى بقيت حتى الآن إحدى أغمض الفقرات فى الإنجيل...

إلا أنه من الممكن أن تصبح اليوم أكثر وضوحًا فى ضوء علامات الزمان الجديدة واحتياجات البشر الجديدة...

وها نحن نوافى بمساهمتنا فى الموضوع...

مقتصرين على بعض المقترحات، التى من شأنها أن تبعث فى الآخرين الشوق إلى المزيد من الدرس والتمحيص...

ونقول: لا بدّ من قراءة آية إنجيل متى ضمن كامل إطارها...

فقول المسيح أن [مَلَكُوتُ اَلسَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ وَاَلْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ **] إنما أوحاه موقف يوحنا المعمدان...**

وكان آنذاك أن تلاميذ يوحنا جاءوا، بإيعاز من معلمهم السجين...

يسألون يسوع : هل إنه هو المسيح؟...

فبعد أن تلقفوا الجواب وانصرفوا، أخذ يسوع يُطرى يوحنا عظيم الإطراء...

فقال عنه إنه ليس بقصبة تهزها الريح، أى أنه ليس ممن ينصاعون للضغوط...

وهو لا يرتدى الثياب الناعمة...

ولا ياكل الطعام الفاخر على نحو ما يفعل الذين هم فى قصور الملوك...

فالمعمدان هو نبى...

ونبى غير سائر الأنبياء...

لا بلّ " هو أفضل من نبى"...

إنه امرؤ دخل الملكوت " عنوة" بقوة الساعد وبطش الذراع...

[وَبَيْنَمَا ذَهَبَ هَذَانِ اِبْتَدَأَ يَسُوعُ يَقُولُ لِلْجُمُوعِ عَنْ يُوحَنَّا: مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِتَنْظُرُوا؟ أَقَصَبَةً تُحَرِّكُهَا اَلرِّيحُ؟

لكِنْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِتَنْظُرُوا؟ أَإِنْسَاناً لاَبِساً ثِيَاباً نَاعِمَةً؟ هُوَذَا اَلَّذِينَ يَلْبَسُونَ اَلثِّيَابَ اَلنَّاعِمَةَ هُمْ فِي بُيُوتِ اَلْمُلُوكِ.

لكِنْ مَاذَا خَرَجْتُمْ لِتَنْظُرُوا؟ أَنَبِيّاً؟ نَعَمْ أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْضَلَ مِنْ نَبِيٍّ] **[متى ١١: ٧ - ٩]...**

العنف الذى يتكلم عنه المسيح، ينبغى دراسته فى ضوء سلوك المعمدان...

الذى كانت صورته شاخصة أمام المسيح وهو يخاطب رسله...

فكيف تصرّف يوحنا، أعظم الأنبياء، وأعظم من قام فى مواليد النساء...

[اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ اَلْمَوْلُودِينَ مِنَ اَلنِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا اَلْمَعْمَدَانِ **] [متى ١١: ١١]...**

لا بدّ من النظر إليه فى إطار زمانه...

ومن هذا المنطلق سرعان ما يبدو لنا مثال " النابذ للأعراف"، الثائر على التقاليد والاتباعية...

إنه فى الحقيقة متمرد، يناوئ مجتمع عصره المتبرجز...

أى أولئك " الذين عليهم الثياب الناعمة وهم فى قصور الملوك"...

إنه يناوئ كنيسة زمانه...

وكان رعاتها يحبّون ارتداء الحلل الفاخرة لأنهم يبتغون " التحيات فى الساحات"...

يوحنا هذا النابذ للأعراف، الصلب الطباع، الذى تروّض فى البرية والجبال...

شأنه شأن الثوار العظام، ولباسه جلود السباع وطعامه الجراد وعسل البر...

[وَيُوحَنَّا هَذَا كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الإِبِلِ وَعَلَى حَقْوَيْهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَاداً وَعَسَلاً بَرِّيّاً **] [متى ٣: ٤]...**

إنه عنيف، وإذا نزل إلى المعترك وسط البشر، فهو يصرخ ويثور على الرياء والخبث، وعلى الظلم بأنواعه...

وإنه ليفعل ذلك على نحو ما يفعله الواثق المؤمن، وبلهفة من يحب ما يؤمن به...

[وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يَكْرِزُ فِي بَرِّيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ

قَائِلاً: تُوبُوا لأَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ.

فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ.

اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً **] [متى ٣: ١- ٣]...**

إنه أعزل، لا سلاح بين يديه، بيد أن كلامه سلاح أمضى من السيف:

[فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالصَّدُّوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ قَالَ لَهُمْ: يَا أَوْلاَدَ الأَفَاعِي مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرُبُوا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي؟

فَاصْنَعُوا أَثْمَاراً تَلِيقُ بِالتَّوْبَةِ.

وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَباً. لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَداً لإِبْرَاهِيمَ.

وَالآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ فَكُلُّ شَجَرَةٍ لاَ تَصْنَعُ ثَمَراً جَيِّداً تُقْطَعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ] [متى ٣: ٧ - ١٠]...

يوحنا المعمدان غيور يدفعه عنفه المقتدّس إلى التحدى والتوعد ...

لا يخاف ما يواجه من مخاطر...

لا يخفاه أنه من الأمان له أن يخفف من حدة كلامه وشدّته، وأن يقبل واقع الأمور ويتغاضى عن الكثير من المظالم...

ولكنه يدرك أنه يواجه مجتمعًا تشرّب الخطيئة والرياء...

وهو لذلك يؤثر العنف الأعزل الذى ترتجف له الحجارة...

العنف الذى يتسلّح به من يسير واعيًا نحو التضحية بحياته للدفاع عن العدالة والمظلومين...

عنف الإنسان الذى لا يقتل ولكنه يجازف بحياته ليعلن فى الساحات والشوارع الحقيقة المجردة...

فيثير استياء وحفيظة الظالمين، ويكشف للفقراء والصغار الإله الحق " الذى جاء يدافع عن المظلومين"...

المعمدان المتسلح برسالة إلهية ليمهد الطريق للرب الآتى...

المعمدان الذى يعمد بالماء للتوبة ويعد الطريق للمسيح الذى يعمد بالماء والروح...

[أَنَا أُعَمِّدُكُمْ بِمَاءٍ لِلتَّوْبَةِ وَلَكِنِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ.

الَّذِي رَفْشُهُ فِي يَدِهِ وَسَيُنَقِّي بَيْدَرَهُ وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ وَأَمَّا التِّبْنُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لاَ تُطْفَأُ] [متى ٣: ١١، ١٢]...

يوحنا المعمدان يتلفّظ ببعض كلمات تقوده إلى السجن وتودى بحياته...

ولكنه يقوم بذلك لأنه يعلم أن ملكوت الله لا يؤخذ إلا عنوة...

لا بالتنازلات الجبانة...

فلا مجال للحياد أو المحاباة أو التغاضى عن الظلم وتجاوزات المسئولين، ومن ثمّ فالمعمدان يجلجل ويوجه الاتهامات:

[لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ اِمْرَأَةُ أَخِيكَ!] [مرقس ٦: ١٨]...

هذا ما قاله لهيرودس لما إتخذ هيروديا زوجة أخيه فيليبس...

وقد كان هيرودس يريد قتله إلا أنه خاف:

[لأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يُوحَنَّا عَالِماً أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ فَعَلَ كَثِيراً وَسَمِعَهُ **] [مرقس ٦: ٢٠]...**

فيوحنا الأعزل يزداد عنفًا وضغطًا على هيرودس، فيندد علانية بظلمه...

بينما هيرودس يخاف لأنه يرى الجميع يتبعه...

هو قوة العنف المجرّد من السلاح، الضارب بقوة الحقيقة...

هو جبروت العنيف البار النزيه، الذى له من القوة المعنوية ما يخوّله الانتفاض والدفاع عن القيم الإنسانية التى داسها البغاة بأرجلهم...

وإنه ليقوم بذلك دون حقد، معرضًا حياته للخطر...

إن العنف الروحى فى سبيل الخير والدفاع عن الحقيقة والعدالة مهما كانت الأخطار، لهو ذو فعالية لم نختبرها بعد بالكفاية...

وإنه لشرعىّ، منبثق من روح الإنجيل، تهب فيه روح الأنبياء...

ولم يتمالك المسيح نفسه من أن يهتز له عجبًا...

ذلك أن يسوع أيضًا كان عنيفًا، ولم يكن أقل عنفًا من يوحنا فى التنديد بمساوئ عصره...

ولهذا السبب قتلوه وهو فى شرخ الشباب...

والعنف الذى مارسه بعطفه على المساكين كما أشد إثارة لحفيظة السلطات الدينية المدنية عليه، منه لو دافع عنهم بقوة السلاح...

لمّا أوفد المعمدان تلاميذه يقولون للمسيح: [أَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟ **] [متى ١١: ٣]...**

اكتفى يسوع بتعداد ما كان يفعل:

[فَأَجَابَهُمَا يَسُوعُ: اِذْهَبَا وَأَخْبِرَا يُوحَنَّا بِمَا تَسْمَعَانِ وَتَنْظُرَانِ:

اَلْعُمْيُ يُبْصِرُونَ وَالْعُرْجُ يَمْشُونَ وَالْبُرْصُ يُطَهَّرُونَ وَالصُّمُّ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ وَالْمَسَاكِينُ يُبَشَّرُونَ.

وَطُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ **] [متى ١١: ٤، ٥]...**

تلك كانت رسالته...

وذلك كان عنفه...

فمهمته قوامها خلاص أصغر الصغار، وآخر الأخيرين، والذين لا جاه لهم ولا فعالية ولا اقتدار...

كان حقًا مسيح الكادحين وأتعس الكادحين...

ولم يقل للموفدين: " الملوك يهتدون، والفريسيون والكتبة يتوبون، والأغنياء من كنوزهم يتصدقون، والمجامع تغص بالمؤمنين"...

المسيح جاء ليخلّص العالم كله...

بالأمس كنا نظن أن السعى وراء القداسة إنما يتم على الصعيد الفردى وفى نطاق داخلى محض...

لذا كان من المنطقى فهم قول المسيح: [مَلَكُوتُ اَلسَّمَاوَاتِ يُغْصَبُ وَاَلْغَاصِبُونَ يَخْتَطِفُونَهُ **] على أنه يشير إلى عنف شخصى داخلى...**

وإلى حرب نشنها على غرائزنا...

أما اليوم فالكنيسة نفسها، بدافع من الروح، وفى ضوء المزيد من التعمق فى معرفة الكتاب المقدس...

تعلمنا أن الخلاص هو عمل جماعى ، بجانب أنه شخصى أيضًا...

وأن القداسة الحقيقية تتبلور فى العطاء لإخوتنا...

وأنه ما من حب مخلص لله إن لم نخلص الحب للبشر...

وبذلك يسهل علينا قراءة آية القديس متى هذه من منطلق آخر...

فإن كان أحد الشروط لخلاصى أن أبذل نفسى لإخوتى...

فمن الطبيعى ألا يكون العنف الذى يتكلم عنه المسيح عنفًا داخليًا فحسب...

بل أيضًا عنفًا يساعدنى على الدفاع عن قريبى، ومساعدته وافتدائه...

وإن كانت شريعتى هى المحبّة...

فلا يسعنى أن أرى زوجة أخى بأخذها متجبر محتكر، وأظل مكتوف اليدين...

ولا يسعنى أن أسير إلى جنب العميان والبرص والمقيدين والجائعين والمظلومين واليائسين والمنبوذين والذين حُوّلواإلى آلات واستُغلّوا، دون أن أمتشق سلاح العنف، عنف التنديد القاطع، عنف المقاومة دون هوادة ـ فى الأمانة للروح ـ عنف المجازفة بكل شئ ـ فى الأمانة لمواهبنا الخاصة ـ عنف التنديد المخلص، الشريف، الفعال...

[طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ.

طُوبَى لِلأَنْقِيَاءِ الْقَلْبِ لأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ.

طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ يُدْعَوْنَ **] [متى ٥: ٧ ـ ٩]...**

ولا بدّ من القول فى الختام...

إنه لا يخفانا أن الإنجيل يرفض رفضًا تامًا كلّ عنف مسلّح دامٍ...

كل عنف يتعدى على حياة الآخرين...

ومن الأكيد أيضًا أن اضطهاد الكنيسة على أبدى الظالمين والبغاة والأشرار، شأنه شأن أمانة الأبرار للخير ورسالتهم، فهو علامة تتسم بها كنيسة المسيح الحق...

وهو أحدى تطويبات يسوع الكبرى:

[طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ] [متى ٥: ١٠]...

فالكنيسة التى لا تعرف إلا تبخير الناس ولا تخضع قط للاضطهاد...

الكنيسة التى تخون مواهبها الخاصة عن خوف أو مصلحة...

تكون كنيسة بلا عنف...

كنيسة دون قوة ونبوة...

أجل،

الكنيسة التى لا تعكس صورة مسيحها، تكون كنيسة جاحدة...

إلهى هو كلّ شئ

إلهى هو كلّ شئ...

إنه الروح والمادة...

الزهرة والنسيم...

الفكرة والحدس...

الكائن والخالق...

الفرح والدموع...

إلهى هو كل ما أرى، ألمس، أسمع، وكلّ ما أجهل...

إنه المنظور واللا منظور...

إلهى هو كل شئ...

لذلك كل شئ حسن...

بيد أن ليس كلّ شئ الله...

الزهرة ليست الله...

إن جعلتها الله، جعلتها صنمًا، ولم يعد ثمة زهرة...

إلا أن الله هو الزهرة، لأن ما من شئ فى الزهرة: المادة، والجمال، والعبير، والحياة، واللون، إلا وهو كائن فى الله...

الإنسان ليس الله...

إن جعلته الله، جعلته صنمًا، ولم يعد ثمة إنسان، بلّ مسخ...

بيد أن ما من شئ فى الإنسان: اللحم والدم، الذكاء، والحب، والحياة بأشكالها، ووجود الروح، إلا وهو كائن فى الله...

لذلك أستطيع أن أحب كل الأشياء المخلوقة، لا لأنها إلهى، بل لأن إلهى الغير المخلوق والخالق هو كل الأشياء...

لذك كلّ الأشياء المخلوقة تهتف إلهى وتنطق به، لأنه ما من شئ إلا وهو هو...

إلهى " الكلّ" ليس بالسهل مع الذين يريدون أن يكون كلّ شئ الله، فيبررون بذلك أصنامهم...

وإلهى " الكلّ" صعب، وأصعب ما يكون مع الذين يرون فى الخليقة ما يضاد الله، وما ينافى الوجود، وما يناقض الروح...

ولكن إلهى هو " الكلّ"، هو روح ومادة، لأنه إله تأنس، ولأن لا شئ يستطيع الوجود إلا وهو له ومنه...

إلا أن إلهى هو " الكلّ" بخلاف ما يكون الإنسان...

لأن الإنسان لا يمكنه إلا تحويل ما خلقه الله...

الإنسان الذى يصنع صاروخًا لا يمكنه أن يقول إنه صاروخ، إنه، على نحو ما، فى صنعه، ولكنه ليس هو صنعه...

لذك عندما أحب صنع الإنسان، فلا أحب الإنسان بل إلهى...

إلهى هو الرب الوحيد، خالق الحياة والأشياء، الموجود جوهريًا فى كل الأشياء...

إلهى وحده يمتاز بأنه الأشياء، فيما الأشياء لا يمكنها على الإطلاق الادعاء أنها هو...

لذلك أقبل إلهى " الكلّ" وأحبّه فى كل الأشياء، رغم أن ما من شئ هو إلهى...

فإه إلهى، إلهى " الكلّ"، هو الفريد الأوحد...

الله هو كيان كلّ الأشياء...

وهذا الكيان قوامه ارتعاش المحبة، لأن الله هو محبّة...

لذلك عندما أحب فى الخليقة الحبّ الذى يحرّك الأشياء من الداخل، الحبّ الذى يصنع الأشياء، الحب الذى هو الأشياء، فإنى أحب حتمًا إلهى، لأنه لا يمكننا أن نحبّ شيئًا مما فيه الحب، دون أن نحب إلهى، إلهى الذى هو الحب بالذات، الحب الكامن والحىّ فى كلّ شئ...

أين هو إلهك؟

أكتب إيك، أنت الذى طالما قال لى إنه لا يؤمن...

أنت الذى سألنى متارجحًا بين الحنين والشك:

{ أين رأيت إلهك؟ أين شعرت بنَفَسه؟ أين سمعت وقع أقدامه؟ }...

أن الذى طَلَبَ إلىّ يومًا وقد شارف على الجنون:

{ أعطنى قطعة من رجائك }...

أنت الذى اعترف لى فى ساعة ضعف وقنوط:

{ إنى إلحادى فارغ }...

أكتب إليك أيتها الأم، التى شاهدت وحيدها يدهسه القطار، فصرخت فى وجهى:

{ إن إيمانك غير معقول }...

أكتب غليك، أيها الزوج، الذى حمل فى ذراعيه زوجته وقتد ماتت على أثر ولادتها الأولى، فصاح أمامى على باب المشفى:

{ لقد مات الله فى حياتى }...

أكتب إليكم جميعًا، أنتم الذين يدّعون الإلحاد وقد طلبوا إلىّ يومًا بإيمان:

{ أين هو إلهك؟ }...

إليكم أبعث بهذه الرسالة التى كتبتها على شرفتى المشرعة على النور، نور أعرف أنه ليس نورى، وأننى لن أستطيع اعتباره نورى إلا بقدر ما ستشاركونى إيّاه...

أين هو إلهك؟

لن أجيبكم جواب كتاب التعليم الدينى:

{ إنه فى السماء }...

فهذه كلمات فارغة فى نظركم...

ولا أنه فى الهيكل، لأن إيمانكم بالكنيسة ميت...

ولا أنه فى الأرض فقط، لأنكم تعيشون لا صقين بها ولا تنفكون تجدونها باردة...

بلّ قد أقول لكم أنه حيث أنتم أيضًا لمستموه مثلى، ولكن دون أن تنتبهوا إلى وجوده...

وحيث سمعتم صوته، ولكن دون أن تصغوا إليه...

وحيث ارتعشتم لمداعبته، دون أن تعرفوه...

فإن كنت مخطئًا، فانقضوا كلامى...

وإن كنت مصيبًا، فمعنى ذلك أننا معًا على الطريق نفسها سائرون...

الله موجود فى وجودك الفارغ، إنه كل ما تود أن تضع فيه لتملأه...

الله هو حيث تتوقف أقمة سعادتك المصطنعة...

إنه عكس ما اعتدت أن تجتره بَعْدَ التقاطِك آلهتك التى إن هى إلا رغوة وزبد...

إنه عكس غثيانك، وخيبة آمالك، ومرارتك، وخجلك من ذاتك، والفراغ الذى ينهش أحشاءك عندما يتعسّر هضمك لفردوسك الورقى...

إنه الشمس التى كنت تتمنى لو أشرقت ساعة أعمت الظلمات عينيك...

الله مرتبط بكلّ ما تبتغى أن يدوم أبدًا...

الله يخفق حيثما تحلم بالوصول...

الله يتوقف حيثما ترفض السير...

إنه فى العيون المليئة بالنور التى إذا ما نظرت إليها وأحببتها، جعلتك أكثر طفولة، وأكثر براءة، أكثر حرية، جعلتك أكثر شاعرية وأكثر واقعًا، أكثر تقبلاً وأكثر حيوية، أكثر رأفة وأكثر استقامة، جعلتك أقلّ " أنت" وأكثر " القريب"...

إنه فى العطش إلى الطهارة الذى ينتاب شفتيك الجافتين بعد تلوّث يُصيب منك الروح أو الجسد...

إنه واقف عند باب كل خيبة أمل..

إنه هاتان اليدان الخفيتان اللتان لا تؤمن بهما، إلا أنك تودّ الإمساك بهما، وقد امتلأنا إخلاصًا وحرارة تفهّم، ودبّ فيهما تيار من العطف يصبر على الزمن...

إنه ذلك القلب الذى تصبو إلى وجوده، وقد ارتسمت معالمه فى مخيلتك ورغبتك بعد كل خيبة...

إنه ذلك الإخلاص الذى يشبه على الأقل إخلاص كلبك، المخلوق الوحيد الذى ما زال يجثم عند قدميك...

ذلك الإخلاص الذى كنت تحلم به نديّـًا يانعًا كالعنقود على عصنه، وهو الآن يفرط مهترئـًا فى يديك المليئتين حقدًا...

الله ينبض فى كلّ نبضة مخلوق جديد...

إنه فى العشب النامى...

إنه فى الماء السارى...

إنه فى الحياة لأن الحياة لا تموت...

إنه فى الاهتزازات التى تُثمل كيان الأم ساعة الولادة، وفى تيار الحب الجديد الذى يجرى من ولدها على الرجل الذى هى مدينة له به، وإنه فى سعادة هذين الحبين المرتبطين الآن، غير منفصليسن، حب الوالدة وحب الزوجة...

والله هو أيضًا فى ذلك التيار العجيب، الذى يهز فى الصميم الوالد المنتظر فى بهو المشفى، ليعرف إن كان ابنه قد ولد...

إنه شئ أقوى منه يضطره إلى أن يزرع الأرض بعصبية، يدخن بلا هوادة، ويشرب القهوة الفنجان تلو الآخر، ويتمتم ساهيًا بعض الصلوات...

إنه فى ذلك الشعور الذى لا يحدّه الوصف، والذى ينتاب كل إنسان أمام أولى ابتسامات ولده...

إنه الله موجودًا فى الرعشة العميقة التى أخذت بمجامع هؤلاء الآلاف من الناس، الذين سمعوا الإذاعة تبث يومًا ما قالته إحدى الفتيات العاملات:

{ لقد تركت فراشى، وخرجت من البيت، وها أنذا أحمل راتبى الأسبوعى لتشتروا حِرامًا لمن هو أفقر منى. إنن أعرف ماذا يعنى البرد، فقد نمت سنين طويلة ولحافى الجرائد، أحلم بأن النهار قد طلع لتوقف أشعة الشمس رجفانى }...

كان الله موجودًا فى قلب تلك الفتاة التى جاء عنها فى إحدى القصائد الروسية، أنها نظرت إلى حبيبها بانجذاب، وقالت:

{ إنى أنظر إلى نفسى فى نور عينيك، فأخالك وليد الشمس الساطعة }...

إن الله فى رجاء الخلود الذى هو فيك أو الذى تحن إليه، ذلك الرجاء الذى يجيش فى قلبك عندما تقبّل مرّة أخيرة جبهة شخص حبيب جمّده الموت، ولم تكن قط لتتصوّره ميتًا...

إنه فى كل ما تملك فرحًا، وفى كل ما تحلم بالوصول إليه...

إنه داخل ما تشعر به فى جسمك، عندما تتصوّر سعادة هى من العظمة بحيث لا تستطيع تحملّها...

إنه فى تلك البرهة التى تسمع فيها قرع الباب وأنت تنتظر من تحلم به...

إنه فى ما تشعر به، فى كل جزء من كيانك، عندما تتلظى عطشًا فيصل بين يديك كأس الماء البارد...

الله موجود فى زوايا حياتك الخفية، حيث لا يدخل أحد، حيث يخاطبك صوت لا تدرى من أين يأتى وإلى أين يذهب، فيقول لك ما لا ترغب فى سماعه، ويذكّرك ما تود لو تنساه، وينبئك بما لا تتمنى معرفته...

إنه فى ذلك الصوت الذى لا تسمعه ولكنه يصرخ، الذى ليس هو صوتك ولكنه يولد فيك، ولا تستطيع النوم ولا الضجيج ولا المشروب ولا الجسد ولا سواها أن تسكته...

إنه الجواب الذى لن تجرؤ بعد على التلفظ به، بيد أنك تشعر به، مؤلمًا ولكنه فعّالاً، وكأنه العملية الجراحية...

إنه فى هوّة إلحادك السحيقة...

إنه فى ما تعرف أنك فقدته، وتخشى ألا تعود وتعثر عليه، وتريد أن تقتنيه رغم أنك تخجل من الإقرار بذلك...

ليس هو فى ما إلتهمته بلّ فى ما لم تذقه بعد...

إنه فى النسيم الذى ينعشك ويداعبك كل مرّة تحب...

إنه فى السعادة التى تسرى فى عروقك كل مرّة ترى قريبك سعيدًا بسببك...

إنه فى فرح الخير الذى صنعته دون أن يعلم به أحد...

إنه فى سلام بحيرة دموعك الصافية، عندما تُصالح ضميرك فتشعر بيقظة جديدة لحياة جديدة...

إنه فى كلّ جمال...

إنه فى كلّ بادرة حبّ...

إنه فى كلّ يد تنفتح على الخير...

إنه حيثما يتنفس إنسان، سواء كان أبيض اللون أو أسوده، بريئًا أو خبيثًا، صحيحًا أو عليلاً، حرًا أو سجينًا...

إنه فى مساء الحياة، فى غروب العجوز الهادئ، فى سائر ذكرياته العذبة، فى رجاء هذا الكائن الذى يرفض الزوال، فى فرح أحفاده الذين يغنون له ويلعبون، فى مقالة الجريدة تتكلم عن ابنته التى نجحت فى الحياة...

إنه فى السلام الذى يدفئ، كأنه الغطاء فى الشتاء، من يقنع بما عنده، ولا يُنْزَع منه ما يبتغيه بالحلال...

إنه وراء كلّ فتقير يطالب بالعدالة، وفى ذلك الفردوس لا يستطيع التنزه فيه إلا بالمخيّلة والرغبة، حيث زالت مظالم المتجبرين وانتفى طغيان المتغطرسين، حيث لا تكون

المساواة الشرعية والأساسية كلمة فارغة أو برنامجًا سياسيًا، بل ثمرة سائغة، حيث لا تعطى الحرية ذاتها بشكل تلقائى إلا حين نكون أحبّ للآخرين منّا لذواتنا...

إنه فى العمل الذى تقوم به عن دعوة، دون أن يستعبدك أو يلتهمك...

إنه فى العمل الذى يجعلك تتحسس الحياة، وتتقوى للحب، وتتهيأ لفهم ما يكمن من سعادة فى عملية دفع عجلة الخلق إلىالأمام...

إنه فى الريف الذى يساعدك على تخفيف وطأة الوحدة، المحتمة على كل مخلوق...

إنه وراء حاجز الغفران...

إنه فى لهفة كل طموح، وكل جهد، وكل تحرّ لا يغتال القريب...

إنه فى أتفه الأمور التى بوسعها أن توفر لك الانشراح، وتساعدك على تحقيق ذاتك، وعلى أن تكون أكثر إنسانية، وعلى أن تتذوق كل ما تقدمه لك الخليقة من خيرات: لفافة التبغأو الزهرة، قصيدة الشعر أو المعزوفة الموسيقية، السفر أو القيلولة، فترة العزلة أو ساعة المرح، الثوب أو العطور، الصديق أو فنجان القهوة، القبلة أو الصلاة...

إنه فى كل ما تبتغيه من خير للذين تحبهم...

إنه العمل الذى يضنى جسمك، ولكنك تنصرف إليه بإقدام وشجاعة فى سبيل أولادك، فإنهم ينتظرون الخبز والثقافة، ويتشوقتون إلى مستقبل أقل قساوة من حاضرك...

إنه فى الراحة التى تخلد إليها عندما تنام، على أعذب ما يكون النوم، لا يعكّر صفو رقادك وصمة ضمير...

إنه فى كل ما لا تدعوه الله، ولكنه يستدرجك إلى عبادته وحبه، وتود لو تنصهر فيه...

إنه فى الوليد الذى يلعب فى أوحال الشارع، ويخاطب بالكاف جميع الناس، ولا يخشى أحدًا...

إنه فى الإنسان الذى سئم الحياة، والرياء، والكذب، والشر، فشعر بضرورة العودة إلى طفولته...

إنه فى الشوق إلى البراءة ...

إنه فى سلام من استعاد بكارته...

إنه فى كل ألم، وكل شهادة، وكل معاناة، وكل فظاظة، وكل حرب، وكل مظلمة، وكل تعاسة، وإنه فى كل رغبة سرّية، ملحاحة، مطهّرة، تقود إلى القيامة...

الله فى تلك القوة العجيبة التى تبقينا على قيد الحياة، وتمنعنا عن الغرق فى لجج الخبل، وتبعدنا عن الانتحار بعد تعرضنا لبعض محن الحياة القاسية، ولبعض المآسى التى تفوق حشرجة الممات شدّة وضراوة...

الله يطفو دومًا فى خضمّ حياتنا المضطربة، حياتنا التى لا تكتمل أبدًا، ولا تكتفى أبدًا، ولا ينتفى منها الدنس أبدًا، الله يطفو على مياهها، خشبة خلاص قريبة من كل أحد وأمينة...

الله هو فى ما تدعوه أنت " القدر"، وما أسميه أنا " العناية" وهو يدعونا كل حين...

الله فى صميم كل رجاء حق، وقد يختبئ الرجاء أحيانًا، ولكنه لا ينطفئ أبدًا، كالشمس لا تموت لأنها نور الله...

الله لا يحوّل عينيه عن أحد، وإن هو فعل، لما كان المحبّة...

لذلك يكون الله بالأخص حيث يشع دفء المحبّة...

لا أؤمن بهذا الإله

قابلت يومًا فى روما البطريرك الراحل " مكسيموس الرابع"..

فقال لى: { إن ما لا يؤمن به الكثير من الملحدين، هو إله لا أؤمن به أنا أيضًا }...

فكان لهذا القول أبعد الأثر فى قلوب العديد من القراء...

ومن ثمّ طلبوا إلىّ أن أحرّر مقالة تصف هذا الإله الذى كنت أنا ايضًا لا أؤمن به...

فنزلت عن رغبتهم، ولكننى لم أدْع إنشاء أطروحة دكتوراه...

بل رأيت أن أباشر حوارًا شخصيًا، حيويًا، جادًا، بالأخص مع الذين لم يلتقوا الله بعد فى طريقهم...

وكنت آنذاك أدرك أن كل مرة يتكلم فيها المرء عن الإله الذى يحيا فيه، فإن تعبيره يظل دومًا محدودًا...

لأن الله هو الحياة...

ولأن الحياة لا تُحدّ بعبارة أو دستور...

فكلّ كلمة تعنى دومًا أكثر مما تحوى وأقلّ مما تحوى...

وكنت أعلم ـ وأجد فى ذلك تعزية سابقة ـ أن البسطاء سيفهموننى، وكذلك الأطهار، والنزهاء، والأبرياء، والذين لايخجلون من أن يبكوا على خطاياهم...

وكنت أعلم أن عددًا منهم لا بأس به سيكتشفون أنهم أقل إلحادًا مما يخشون...

أنشأت المقـال...

فسُلّط عليه النقد وتسبّب لى ببعض الصعوبات...

ولكنه كان لى فى الوقت نفسه من أعظم دواعى التعزية...

فإنْ أنسى لن أنسى قط رسالة كانت بين الآلاف من الرسائل التى وصلتنى، عقب ذلك، بواسطة الجريدة التى صدرت فيها أولاً...

قال لى الزوجان أصحاب هذا الكتاب:

{ ها نحن نبعث إليك بمقالك لتوقعه لنا، كلانا ملحد، ولكن لنا أربعة أولاد، وبغيتنا لهم، إذا ما آمنوا يومًا بالله، أن يؤمنوا بذلك الإله الذى تدعوه " الإله الآخر" }...

ولن أنسى أيضًا رسالة خطّها بيده رئيس أساقفة إيطالى، من المقربين إلى البابا بولس السادس...

جاء فيها:

{ مقالك من أجمل ما كُتب منذ المجمع الفاتيكانى الأخير، ولقد كان من المستحيل كتابة مثلها قبل ذلك التاريخ، سوف تُحرّك تيارًا من شأنه أن يدك المثير من الأحكام المسبقة على الإكليروس، تهانىّ القلبية الحارة، يا أب أرياس }...

وهل أستطيع أن أنسى الرسالة التى جاءتنى من أحد الطلبة الشباب، وفيها كتب:

{ لقد تأملت مقالتك مدة أشهر عديدة، وفى النهاية قرّرت أن أصير كاهنًا، فأود أن أشكرك }...

لا غرو أن الذين تشككوا من كلامى إلى حد أنهم خافوا أن أفقد الإيمان، قد جعلونى أفكر...

إلا أن ضميرى يشهد أنَّ مقالتى لم تكن سوى طريقة جديدة لأعلن على الملأ إيمانى بهذا الإله الذى لا يُحدّه وصف...

والذى طالما طالبنى به، على مثل ما يكون التوسل والتسول، أناس كثيرون يجاهرون بالإلحاد...

لذلك أردت أن أختم كتابى بهذه الأسطر...

وهى إقرارى البسيط الناقص، ولكنه المخلص، بالإيمان

الإهداء ....

إلى أصحابي غير المؤمنين

- أجل ، لن أؤمن أبداً...
- بإله يباغت الإنسان في خطيئة ضعف...
- إله يشجب المادة...
- إله يعييه الجواب عن المشاكل الخطيرة التي يواجهها إنسان مخلص مستقيم يقول له باكياً: " لا أستطيع"...
- إله يحب الألم...
- إله يعترض على أفراح البشر...
- إله يعقم عقل الإنسان...
- إله منجم مشعوذ ...
- إله يفرض رعبه في القلوب...
- إله يرفض أن نخاطبه بالـ " كاف "...
- إله عجوز قابل للخداع...
- إله تحتكره كنيسة ، أو عنصر، أو ثقافة، أو فئة معينة...
- إله لا يحتاج إلى الإنسان...
- إله " يانصيب" لا يمكن الحصول عليه إلا مصادفة...
- إله حكم لا يلعب إلا وفي يده النظام...
- إله متوحد...
- إله لا يحسن الابتسام أمام حيل البشر وخداعهم...
- إله " يرسل" الناس إلى جهنم...
- إله لا يحسن الرجاء...
- إله يطلب دوماً العلامة القصوى في الامتحانات...
- إله تستطيع الفلسفة تفسيره...
- إله يعبده الذين يقدرون على إدانة إنسان...
- إله لا يستطيع حب ما يزدريه الكثيرون...
- إله لا يستطيع مسامحة ما يدينه الكثيرون...
- إله لا يستطيع افتداء البؤساء...
- إله لا يفهم أن "الأطفال" لا بد أن يتوسخوا...
- وأنهم معرضون للنسيان...
- إله يمنع الإنسان من النمو، والفتح، والتطور...

- وتجاوز حدوده إلى أن يجعل من نفسه " شبه إله "...
- إله يفرض على الإنسان، إن أبتغي الإيمان ...
- أن يتنازل عما يجعل منه إنساناً ...
- إله لا يقبل الجلوس والمشاركة في أعيادنا البشرية...
- إله لا يفهمه إلا الراشدون، والحكماء، وأصحاب المناصب ...
- إله لا يخشاه الأثرياء، ممن يقوم على أبوابهم البؤساء والجياع...
- إله يمكن أن يقبله ويفهمه أولئك الذين لا يحبون ...
- إله يعبده الذين يذهبون إلى القداس، ولا ينفكون يسرقون ويغتابون ...
- إله معقم، يصوغه علماء اللاهوت والقانون داخل مكاتبهم ...
- إله لا يقوى على اكتشاف بعض الخير، بحكم الطبيعة نفسها...
- حيثما يخفق الحب، مهما زاغ عن الطريق...
- إله يرتضي تقدمة من لا يعمل بالعدل ...
- إله يساوي بين خطيئة من يسر برؤية ساقين جميلتين ...
- ومن يغتاب قريبه أو يسرقه، أو من يستغل سلطانه ليزدهر أو ينتقم ...
- إله يشجب الجنس ...
- إله يستطيع أن يقول : " سوف تدفع لي الثمن " ...
- إله يتندم على أنه أعطى الحرية للإنسان ...
- إله يؤثر الظلم على الفوضى ...
- إله يرضى عن المرء الذي يسجد ولا يعمل ...
- إله أخرس لا شعور له أمام المشاكل الخانقة التي تؤلم البشرية ...
- إله همه النفوس لا الأناس ...
- إله أفيون بالنسبة إلى الإصلاح الزراعي، ورجاء بالنسبة إلى الآخرة فقط...
- إله يؤمن به تلاميذ يهربون من أعمال هذه الدنيا ولا يأبهون بشؤون إخوتهم ...
- إله الذين يظنون أنهم يحبون الله لأنهم لا يحبون أحداً ...
- إله يدافع عنه من لا يوسخون أيديهم قط ...
- ولا يطلون من شبابيكهم قط ...
- ولا يرمون بأنفسهم في الماء على الإطلاق ...
- إله يعجب الذي دأبهم القول: " كل شيء على ما " يرام ...

- إله الذين يزعمون أن الكهنة يرشون الماء المبارك على قبور أحابيلهم المكلسة...
- إله مواعظ الكهنة الذين يظنون أن جهنم مكتظة والسماء تكاد تكون فارغة...
- إله الكهنة الذين يزعمون أنه من الحلال نقد جميع الأشياء والناس باستثنائهم...
- إله الكهنة المتبرجزين...
- إله يحب الحرب...
- إله يجعل الشريعة فوق الضمير...
- إله يؤسس كنيسة جامدة، تدعو إلى الجمود ...
- لا تقوى على التطهر والتحسن والتطور...
- إله الكهنة الذين تزدحم جعبتهم بالأجوبة الجاهزة عن جميع المشكلات...
- إله يرفض للإنسان حرية الوقوع في الخطيئة...
- إله يمتنع عن السخرية من الفريسيين الجدد...
- إله ينقصه الغفران لأية خطيئة...
- إله يفضل الأغنياء والأقوياء
- إله " يتسبب" بالسرطان أو " يجعل" المرأة عاقراً...
- إله لا يمكن مخاطبته إلا ركوعاً ، ولا يوجد إلا في الكنيسة...
- إله يقبل ويستحسن كل ما يقول عنه الكهنة...
- إله لا يخلص الذين لم يجدوه، بل الذين تاقوا إليه وبحثوا عنه...
- إله " يرسل" الولد إلى جهنم بعد خطيئته الأولى...
- إله لا يمنح الإنسان إمكانية القضاء على نفسه بالهلاك...
- إله لا يكون الإنسان في نظره مقياس كل المخلوقات...
- إله لا يسرع لملاقاة من تولى عنه...
- إله لا يستطيع أن يجعل كل الأشياء جديدة...
- إله لا يوجه كلمة مميزة، شخصية، خاصة، إلى كل فرد...
- إله لم يعرف السبيل إلى البكاء بسبب الناس...
- إله لا يكون النور...
- إله يفضل الطهارة على الحب...
- إله لا تهيج مشاعره أمام الوردة...
- إله لا تستشفه في عيني الطفل، أو في الفتاة الجميلة ، أو الأم الباكية...

- إله لا يكون موجودا حيث يحب الناس بعضهم بعضًا...
- إله يقترن بالسياسة...
- إله يوحي بنفسه مرة واحدة لمن يتوق إليه بإخلاص...
- إله يهدم الأرض، والأشياء التي يحبها الإنسان، بدل أن يطورها ...
- إله يكون بلا سر، ولا يكون الأكبر...
- إله يريد لنا سعادة غريبة عن طبيعتنا البشرية...
- إله يزيل جسدنا إلى الأبد بدل أن يقيمه من الأموات...
- إله يعتبر قيمة الناس لا في ما هم، بل في ما لهم أو ما يمثلون...
- إله يقبل صديقا له من يجور في الأرض ولا يسعد أحداً...
- إله لا يكون سخاؤه كسخاء الشمس...
- فهي تقبل كل ما تلمس، الزهرة وخثي البقر، على حد سواء...
- إله لا قبل له بتأليه الإنسان...
- ولا يستطيع أن يجلسه إلى مائدته ولا أن يوليه نصيبا في ميراثه...
- إله لا يحسن تقديم فردوس نكون فيه جميعاً أخوة حقًا...
- ولا يكون مصدر النور فيه من الشمس والكواكب فحسب...
- بل من الناس الذين يحبون...
- إله لا يكون فيه محبة ولا يحسن تحويل كل ما يمسه إلى محبة...
- إله لا يمكنه أن يتولع بالإنسان...
- إله لا يصبح إنسانًا حقًا مع كل ما يترتب على ذلك من تبعات...
- إله لم يولد ولادة عجيبة من أحشاء امرأة...
- إله لم يعط البشر أمه بالذات...
- إله لا يسعني أن أرجوه فوق كل رجاء...
- أجل ، إن إلهي هو الإله الآخر...

إلهى شاعر

إلهى شاعر...

لأن الشاعر هو خير من عبّر بالكلمات عن أعمق الأحاسيس غورًا وأكثفها ستارًا...

لذا صار إلهى كلمة...

كلمة هى كمثل ما يكون الشعر صفاءً، وإيحاءً، وجدّة...

كلمـة تاقت إليها الدنيا منذ القديم...
كلمـة تقـول كلّ شئ...
كلمـة لم يقـلها أحـد من قبـل أو من بعـد...
كلمـة محيية...
إلهى شعر جـديد لأنه يخـلق ما يتغنّى به، فيما الشعـراء الآخـرون يتغنون بما يحـلمون به، وبما يحـبون، وبما قد لا يكون...
شعر إلهى أعـجوبة من الأعـاجيب...
" أيتها الصبية قومى" . كلمات الصباح، ولكنها كلمات خـلاقة، إذ الفتاة تعـود إلى الحياة...
" هـذا هـو جسدى" . كلمات المساء، ولكنها أدخـلت الله إلى العالم، وها نحن نأكله...
" غـفـرت لك خطاياك"، كلمات من قلب الليل، ولكن من تلك الساعـة أصبح الثلج وليد كل الفصـول...
" اليوم تكون معى فى الفـردوس" ، كلمات خـرجت عـن الزمن، ومن تلك الساعـة جـرى اللامتنـاهى والأزلى فرحـين فى عـروقنـا، يغـذيان منـا الآمال...
إلهى شاعـر لأنـه يحسن التعـبير عن أشد الأمـور صـعـوبة وغـموضًا، ببساطـة الأطفـال...
إلهى شاعـر لأنـه يحسن بث النـور بثًـا فى أحـلك الظلمـات...
ولأنـه يحسن بث الدفء فى ما ضـربه الـبرد...
ولأنـه يحسن رسم الرجـاء علـى جـدران العـار الوسخـة...
ولأنـه يجـترح المعـجزات، فـفيه كل شئ يستحيل شعـرًا حتى البؤس الأليم...
إلهى الشاعـر جمع فى عينيه، لما عـبر فى أرضنـا، كل الشعـر الكامن فى الأشياء والنـاس...
لذلك فما من بيت شعر إلا هـو كتبه، وأنشده، واستمـع إليه...
كل شئ كان شعـرًا فى نظـر إلـهى:
الدجاجة التى تحمى فـراخها...
فلس الأرملـة...
سنـابل القمح...
بـئر السامرية...
الأولاد يأتون إليه...

المـرأة المتيمة الخاطئة...

الرجل الخائف المتردد...

الأم فى الولادة...

السمك يشويها على الجمـر...

تقشف المعمدان...

وإلهى يبقى شعرًا أبديًا، لأنه يبقى كلامًا صائتًا أو صامتًا، إنه يبقى، فى قلوب البشر، منشد التاريخ الأعظم...

وإلهى يبقى شاعرًا، لأنه لا وجود فى إلهى إلا للجمال، والإحساس، والحنان، والذكاء، والنبوءة، والشغف بكل ما فى الوجود...

كل شاعر أصيل هو، على نحو ما ، صاحب ثورة، لأنه يسبر غور الأمور فتتعكر المياه، وتتفتق الأوحال الدفينة...

لذلك فإن إلهى هو الثوروى الحقيقى فى التاريخ...

لذلك فإن إلهى شعره لا يزال عصريًا حيًا...

لذلك فإن اشعاره وسائر كلماته لا تزال تهزنا وتقرعنا وتدعونا...

وإلهى صعب المراس، إلهى الشاعر، إلهى الحساس، إلهى الثوروى صعب مع الذين يفكّرون بإله هندسى رياضى...

مع الذين لا يتصورون إلهًا يحب الأمور الملوسة...

مع الذين يؤثرون إلهًا أبكم...

مطبق الأسرار...

عديم الشعور...

بيد أن إلهى سيظل شاعرًا، دائمًا أبدًا...

شاعر اللامتناهى، شاعر الأرض، أرضى، أرضى التعيسة، أرضى الرقيقة...

إلهى يتفاعل مع كل نسمة من الشعر الحىّ، المجبول باللحم والدم الإنسانى...

إلهى هو الشعر بالذات...

إلهى هو الإلهام لكلّ مخلوق يَدَعُ قصبة كيانه النحيلة تمتلئ، فى كل لحظة، من تلك الكلمة الخفية العجيبة التى تعطيه الوجود، وتذكّره بأن الحياة ليست بدون معنى...